بلاغة التشبيه والمجاز اللغوي

في الرسالة الجدية لابن زيدون

د : عبد الصبور السيد علي

مدرس البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالمنوفية

اصدار يونيه لعام 2016

شعبة النشر و الخدمات المعلوماتية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه وتعالي بجميع المحامد فهو عز وجل المستحق للحمد إذ هو المنعم تبارك وتعالي علي العباد تفضلا بجلائل النعم وبدقائقها ونستلهم منه تبارك وتعالي العون والتوفيق ونسأله عز شأنه الهداية إلى أقوم طريق إنه سبحانه علي كل شيء قدير وهو نعم المولي ونعم النصير، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيد البلغاء وإمام الفصحاء وخير من نطق بلغة الضاد فكان(صلى الله عليه وسلم) أفصح من تكلم بها وأنزل الله تبارك وتعالي عليه القران فحمى به حرمها وفضلها به علي جميع اللغات، وأعلي قدرها فكان بحق خير حافظ لها من كل دخيل لأنه الكتاب الذي لم يطرأ عليه تحريف ولا تغيير ولا تبديل فسبحان منزله وسبحان حافظه وسبحان من هو صراطه وسبحان من هو حبله وسبحان من فرق به بين الحق والباطل وجعله دستورا لكل امرئ في العاجل وحجةٌ له أو عليه في الآجل

أما بعد

فإن علم البلاغة من أرفع العلوم قدرا وأعلاها ذكرا ، وأسماها شرفا ؛ إذ به يكشف عن وجوه إعجاز القرآن، وبه يتذوق المتأمل في مباحثه حلاوة البيان فيدرك به عظمة هذه اللغة الكريمة شعرا ونثرا ، ويتحقق عنده قوله (صلى الله عليه وسلم)" إن من البيان لسحرا " ولقد قيض لهذا العلم فرسانا في ميدانه تتبعوا مسائلة وجمعوا بين متفرقه وتعهدوا بعناية غرسه حتي أينعت على أيديهم ثمرته ، واكتملت بإخلاص في خدمته فائدته فغدا نوره ببركاتهم ساطعا وصار علما مستقلا بنفسة بعد أن كان تابعا ، فتبينت معالمه وتحددت مسالكه فانحصرت في ثلاثة فنون ؛ هي المعاني والبيان والبديع .

هذا واذا كان من المعلوم أن الأسلوب الأدبي يتنوع إلي شعر ونثر ، وإذا كان الأدباء قديما وحديثا قد احتفلوا بالشعر واهتموا به اهتماما واضحا علي مر العصور ؛ فان للنثر الأدبي أيضا أهمية كبري لا تقل عن الشعر بل قد تزيد عليه ، ومن ثم نهض النثر مع الشعر جنبا إلي جنب ، وأصابه ما أصابه من التحول والتغير قوه وضعفا بحسب العوامل التي أثرت فيه من اختلاف أحوال المنشئين وتنوع ثقافتهم وما تقتضيه طبيعة بيآتهم وعصورهم مما هو معروف لدي الدراسين المتتبعين لدواوين الأدب العربي ، ومن أنواع النثر التي لها من الأهمية ما لها من المكانة العظمي أو المرتبة العليا في لغة الأدب العربي ما يسمي بالرسالة الأدبية أو الإخوانيات ، ومن أجل من

اشتهر بهذا النوع في العصر الأندلسي الأديب العالم العلم صاحب الوزارتين أبو الوليد ابن زيدون ، ومن أعظم ما كتبه من ذلك رسالته التي خاطب بها وهو في سجنه الأمير ابن جهور المسماة بالرسالة الجدية ، وقد شرح هذه الرسالة الإمام خليل ابن أيبك الصفدي في كتاب سماه : (تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون) كما شرحها مصطفي عناني مفتش منطقة القاهرة بوزارة المعارف في كتاب سماه (إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون) وهذان الشرحان قد تناولا الرسالة تناولا عاما ، اعتني فيهما صاحباهما بتوضيح الغريب من مفردات اللغة وبيان معاني الرسالة وذكر الوقائع التاريخية التي اشتملت عليها ، كما اهتما بنسبة الأبيات التي استشهد بها ابن زيدون في رسالته إلى قائليها ، ولم يتناولها أحد فيما وقفت عليه تناولا بلاغيا يكشف ما فيها من ألوان بلاغية ويبرز جمالها ويبين عن محاسنها ، ويظهر ما كان عليه ابن زيدون من إحاطته بأساليب الكلام ومواطن الحسن والجمال ، ولما كان تناول ما في هذه الرسالة من الألوان البلاغيةعلى وجه الشمول مما يضيق عنه المقام ، ولا يطابق ما عليه الفقير من مقتضى الحال ، وكانت تلك الرسالة قد احتوت على تشبيهات رائعة ، واستعارات بديعة ، لذا أردت محاولة إبراز مواطن الجمال ومواقع الحسن ، لما فيها من تلك التشبيهات ، وما تحتوي عليه من هاتيك الاستعارات ، ولما كانت الاستعارة قسما من أقسام المجاز اللغوي ، وكان ما يسميه البلاغيون بالمجاز المرسل هو القسم الآخر منه ؛ لذلك أردت أن أقتصر في هذا البحث على التشبيه والمجاز اللغوي في هذه الرسالة ، ومن ثم كان هذا البحث يحتوي على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

أما المقدمة فأتناول فيها بعد المطلع المعهود من حمد الله تعالى ، والثناء على رسوله (صلى الله عليه وسلم) ببيان أهمية علم البلاغة ، والإشارة إلى رسالة ابن زيدون مجال هذه الدراسة ، مع ذكر من وقف عليه ممن شرحها ، واعتنى بها ، ثم الإشارة إلى ما يقتصر عليه البحث من بعض ألوان البلاغة في هذه الرسالة ، ثم الإشارة إلى خطة البحث ، ومنهج الباحث في تناوله لبيان تلك الألوان مجال الدراسة ، وسيكون منهج هذا البحث بحول الله تعالى على النحو التالي :

1- إيراد كلام ابن زيدون محل الشاهد
2- بيان اللون البلاغي الذي نحن بصدد البحث فيه
3- بيان السر في اختيار التعبير الذي اختاره ابن زيدون دون غيره
4- بيان وجه تناسب هذا اللون مع سياق الرسالة وملاءمته للمعني العام والغرض والمقصود من إنشائها

5- إذا وجدت أن أحدا من الأدباء والشعراء قد تناول هذا المعني الذي تناوله ابن زيدون في رسالته أو لفظا قريبا من اللفظ الذي اختاره عقدت مقارنة بين كلام الكاتبين وموازنة بلاغية بين المنشئين محاولا بذلك بيان من أصاب الغرض منهم والله الموفق إلى الصواب ، وأما التمهيد فأذكر فيه نبذه مختصرة لترجمة ابن زيدون ثم أتكلم فيه عن الرسالة كلاما عاما يبين ما لها من مكانة بين الأدباء وثناء بعض العلماء عليها وبيان السمات العامة التي امتازت بها ، وأما الفصل الأول فهو بعنوان التشبية وبلاغته في رسالة ابن زيدون ويشمل علي مدخل أذكر فيه باختصار معني التشبية لغة واصطلاحا وبيان أركانه وفائدتة البلاغية .

تمهيد

أولا : ترجمة ابن زيدون ، حياته ونشأته ومناصبه ووفاته

هو الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي الكاتب الشاعر المشهور

ولد بالرصافة . ضاحية من ضواحي قرطبة سنة 394هـ

كان أبوه من أعيان فقهاء قرطبة

واشتغل ابن زيدون بالأدب وحفظ كثيرا من مسائله ونقب عن دقائقه إلى أن برع وبلغ في صناعتي النثر والنظم المبلغ الطائل، وامتلأت نفسه بالمعاني التي قرأها وأسماء الناس الذين عرفهم في قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التي جرت مجري الأمثال

قال عنه ابن بسام : "كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء مخزوم أحد من جر الأيام جرا ، وفات الأنام طرا وصرف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظما ونثرا ؛ إلى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر تألقه وشعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظاً من النثر غريب المباني وشعري الالفاظ والمعاني " (1)

ويقول عنه أيضا : " فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه وغزارة بيانه ورقة حاشية لسانه فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد والرمل الذي لا يحصر ولا يعد " (2)

وقد كان ابن زيدون من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ، برع أدبه وجاد شعره وعلا شأنه وانطلق لسانه وحقق بيانه ، ثم إنه انتقل من قرطبة إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، فجعله من خواصه ، يجالسه في خلواته ، ويركن إلى إشاراته ، وكان معه في صورة وزير ، وكان أولا قد انقطع إلى ابن

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تح : د/ إحسان عباس (260/1) ط/ دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 2000م

(2) السابق (262/2)

جهور ، أحد ملوك الطوائف المتغلبين بالأندلس ، فخف عليه وتمكن منه ، واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به وتمنوا ميله إليهم لبراعته وحسن سيرته ، فاتفق أن نقم عليه ابن جهور فحبسه واستعطفه ابن زيدون بفنون النظم والنثر، من ذلك رسالته التي كتبها إليه وهو في سجنه، وبأمثالها من فنون النظم والنثر ، فما أجدى ذلك عليه شيئا ، ففرّ من محبسه لما أعياه الخطب ، واتصل بعد ذلك بابن عباد ، فاحتفى به وجعله من خواصه ، يداخله في خلواته وجولاته ، ويشاركه في مجالسه الخاصة والعامة

توفي ابن زيدون وعمره يناهز الثمانية والستين عاما ، وكان ذلك سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجريا الموافق إحدى وسبعين وألف ميلاديا ، حيث ذكر التاريخ بأنه مات مسموماً في إشبيلية عندما أرسله الخليفة (المعتمد) بقيادة جيش للقضاء على الفتنة وإخمادها آنذاك،وقد وافته المنية بعد أن أثرى ببراعته فنون وأغراض الشعر العربي عبر رحلة عطاء زاخرة بالأدب والشعر الجميل .

ثانيا : الرسالة الجدية

هي إحدى درر ابن زيدون المتبقية من آثاره ، ذاع صيتها وانتشر بين أهل العلم والأدب أمرها، كتبها في السجن يستعطف بها الأمير ابن جهور حين نقم عليه في بعض الأمور فأودعه السجن "وقد عني بها العناية كلها لفظا ومعني وأسلوبا وسبكا، وكأن الحبس أطلق لسانه وبيانه وهاج شعوره ووجدانه " [1].

ولقد أعجب الأدباء بهذه الرسالة لما احتوته من عذب الألفاظ وجميل العبارات وما تضمنته من دقيق الفكر ولطيف الإشارات " وقد جمع في هذه الرسالة بين التناسق في المعاني والألفاظ والتأليف والجمع فبيمنا تجده يرق في الاستعطاف إلى أن يستصغر نفسه ، ويجمع من المعاني والألفاظ ما يناسب ذلك ؛ تجده انسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه .

فهي رسالة بديعة في نظمها وأسلوبها كثيرة الفائدة لما اشتملت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال ، جامعة لكثير من المعاني كالمدح والاعتذار والاستعطاف والفخر والامتنان وذم الزمان ، ولوم الأعداء والحقد عليهم والصبر والتجلد ، كل ذلك بعبارات أكثرها بليغ سائغ ، يدل علي طول باع الكاتب في الأدب واللغة والتاريخ " [2]

والرسالة في مجملها تعبر عن نفس ابن زيدون الأبية ، وتترجم عن أخلاقه العلية وتبين قدره ومنزلته في الأدب إبانة جلية " وذلك لصدق التجربة والمعاناة فيها ، فهي أوثق صلة بصاحبها ، وأفصح تعبيرا عن واقعه وأصدق بيانا عن ثقافته ، وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه وإلمامه بأحداث التاريخ ومواقف الحياة " [3]

---

(1) إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون ، لمصطفى عناني ، ص 34 ، ط/ المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الثالثة 1927م

(2) الأدب الأندلسي التطور والتجديد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، ص 621 ، ط/ دار الجيل. بيروت ، الطبعة الأولى 1992م

(3) دراسات في الأدب الاندلسي ، ص 164 ، د/ السيد محمد الديب ، ط / المكتبة الأزهرية ، الطبعة الأولى 1999م

لقد تناول العلماء هذه الرسالة بالشرح والتعليق ومن أشهر من شرحها وأبان عن دررها ونشر بين الناس مكنونها العالم النحرير خليل بن أيبك الصفدي في كتاب أسماه (تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون) وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم .

وألف الأستاذ / مصطفي عناني المفتش بوزارة المعارف كتابا في شرح تلك الرسالة أيضا ، وسماه (إظهار المكنون في الرسالة الجدية لابن زيدون)

ومن كلام الصفدي رحمة الله في ثنائه علي هذه الرسالة قوله : " وبعد فإن رسالة ابن زيدون التي كتبها لابن جهور من الرسائل الطنانة والخمائل التي لا يذوي زهرها وحمائم غصونها بالتغريد رنانة ، والفضائل التي لا تزال محاسنها علي من حاول معارضتها منانة ، قد أبرزها منشئها كالقمر ليلة تمامه وكالزهر المخبوء في أكمامه وأتعبت من يجاريها فما تشق الغبراء لها غبارا ، ولا يبيت ذو حس في مباراتها فهو أصله وفرعه يتمادى ويتمارى ولا يملك البرق المتألق إذا سار علي أثرها إلا عثارا ، مشحونة بما فيها من الإشارات إلى الوقائع والأمثال ، وحل الأبيات الأبيّات في الانقياد علي الرجال ،نمط في الإنشاء غريب ، وحلاوة ألفاظ ليس الضرب لها بضريب وطلاوة عبارة ما تريب ، إنها تحلي الأجياد والتريب ، لم تر فيها من البلاغة ترفيها ، ولم تجد فيها لفظة تحويها ،إلا وهي تنطق بالبلاغة ، ولم تنظر معانيها إلا وهي تطوي المحاسن وتوطيها ... " [1]

محاور الرسالة :

أقام ابن زيدون رسالته علي عدة محاور رئيسية وهي :

مدح ابن جهور والإشادة بمكانته

إظهار المعاناة الشديدة والضيق والتبرم مما حدث له في محبسه

التبرؤ من الذنب الذي وشي به إلى ابن جهور

ذم الوشاة والمفسدين

---

(1) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، للصفدي ، ص 201 ، 21 ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ المكتبة العصرية . بيروت 1969م

التأكيد الدائم علي بقائه علي عهده ، وتعلقه بحبل المودة والوفاء

الترغيب في العفو والصفح.

الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها وإظهار التجلد والصبر .

هذا وقد وفى ابن زيدون هذه المحاور حقها ، فكانت رسالته نمطا غريبا ، ونالت من الأدب حظا عجيبا ، وسنتكلم إن شاء الله تعالى عن بعض ما أخذه النقاد على منشئها إذا وصل بنا الحديث إلى خاتمة هذا البحث.

نص الرسالة

قال ابن زيدون : " يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتدادي به وامتدادي منه ومن أبقاه الله ماضي حد العزم واري زند الأمل ثابت عهد النعمة إن سلبتني أعزك الله لباس نعمائك وعطلتني من حلى إيناسك وأظمأتني إلى برود إسعافك ونفضت بي كف حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك وسمع الأصم ثنائي عليك وأحس الجماد باستحمادي إليك ، فلا غرو قد يغص الماء شاربه ويقتل الدواء المستشفي به ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمني في أمنيته والحين قد يسبق جهد الحريص.

كــلُّ المصــائبِ قــد تمــرّ علــى الفــتى وتهـــون غـــير شماتـــةِ الحسَّـــادِ

وإني لأتجلد وأرى للشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع فأقول هل أنا إلا يد أدماها سوارها وجبين عض به إكليله ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مثقفه وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقســا ليزدجــروا ومــن يــكُ حازمــاً فلــيقسُ أحيانــاً علــى مــن يــرحمُ

هذا العتب محمود عواقبه وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ولن يريبني من سيدي إن أبطأ سيبه أو تأخر غير ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها وأثقل السحائب مشياً أحفلها وأنفع الحيا ما صادف جدباً وألذ الشراب ما أصاب غليلاً ومع اليوم غد و (لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ) [الرعد: 38] له الحمد على اهتباله ولا عتب عليه في اغتفاله.

فــإن يكــن الفعــلُ الــذي ســاءَ واحــداً فأفعالـــهُ اللائـــي ســـررنَ ألـــوفُ

وأعود فأقول ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك والتطاول الذي لم تستغرقه تطولك والتحامل الذي لم يف به احتمالك ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك أو مسيئاً فأين فضلك.

إلا يكـــن ذنـــب فعـــدلك واســـعٌ أو كـــان لي ذنـــبٌ ففضـــلك أوســـع

فهبـــني مســـيئاً كالـــذي قلـــت طالبـــاً قصاصـــاً فـــأين الأخـــذ يـــا عـــزّ بالفضـــل

حنانيك قد بلغ السيل الزبى ونالني ما حسبي به وكفى وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب معنا فقلت سآوي إلى جبل يعصمني من الماء وأمرت ببناء صرح لعلي أطلع إلى إله موسى وعكفت على العجل واعتديت في السبت وتعاطيت فعقرت وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت وقدت الفيل لأبرهة وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة وتأولت في بيعة العقبة واستنفرت إلى العير ببدر وانخذلت بثلث الناس يوم أحد وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة وجئت بالإفك على عائشة الصديقة وأنفت عن إمارة أسامة وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة ورويت رمحي من كتيبة خالد ومزقت الأديم الذي باركت يد الله عليه وضحيت بأشمط عنوان السجود به وبذلت لقطام.

ثلاثـــــة آلافٍ وعبـــــدٌ وقينـــــةٌ وضـــربُ علـــيّ بالحســـامِ المســـمَّمِ

وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع بالحسين وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة.

ليـــت أشـــياخي ببـــدرٍ شـــهدوا جـــزع الخـــزرج مـــن وقـــع الأســـل

ورجمت الكعبة وصلبت العائذ على الثنية لكان فيما جرى عليّ ما يحتمل أن يكون نكالاً ويدعى ولو على المجاز عقابا.

وحســـبك مـــن حـــادث بـــامرئٍ تـــرى حاســـديهِ لـــه راحمينـــا

فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح ونبأ جاء به فاسق وهم المهمازون المشاؤون بنميم والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال ما ظنك بقوم الصدق محمود إلا منهم.

حلفـــت فلـــم أتـــرك لنفســـك ريبـــةً ولـــــيسَ وراءَ الله للمـــــرءِ مـــــذهبُ

والله ما غششتك بعد النصيحة ولا انحرفت عنك بعد الصاغية إليك ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ولا أزمعت يأساً منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك وعهد أخذه حسن الظن عليك ففيم عبث الجفاء بأذمتي وعاث العقوق في مواتى وتمكن الضياع من وسائلي ولمَ ضاقت مذاهبي وأكدت مطالبي وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالإياب وأنى غلبني المغلب وفخر عليّ العاجز الضعيف ولطمتني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تضطرم جوانح الأكفاء حسداً لي على الخصوص بك وتنقطع أنفاس النظراء منافسة لي على الكرامة فيك وقد زانني اسم خدمتك وزهاني وسم نعمتك وأبليت البلاء الجميل في سماطك وقمت المقام المحمود على بساطك.

ألســـتُ المـــوالى فيـــك غـــرّ قصـــائد هـــي الأنجـــمُ اقتـــادت مـــع الليلـــي أنجمـــا

ثنـــاءٌ يظـــلُّ الـــروض منـــه منـــوراً ضـــحّى ويخـــال الوشـــى فيـــه منمنمـــا

وهل لبس الصباح إلا برداً طرزته بفضائلك وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرك واستملى الربيع إلا ثناء أملأته في محاسنك وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدك (ما يوم حليمة بسر) وإن كنت لم أكسك سلیباً ولا حليتك عطلاً ولا وسمتك غفلاً بل وجدت آجراً وجصاً فبنيت ومكان القول ذا سعة فقلت حاشا لك أن أعد من العاملة الناصبة وأكون كالذبابة المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق (فلك المثل الأعلى) وهو بك وبي وفيك أولى ولعمرك ما جهلت أن (صريح الرأي) أن أتحول إذا بلغتني الشمس (ونبا بي المنزل) واصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال فلا (استوطئ العجز) ولا أطمئن إلى الغرور. ومن الأمثال المضروبة: خامري أم عامري ، وإني مع المعرفة أن الجلاء سباء والنقلة مثلة.

ومن يغتربْ عن قومه لم يزل مصـــــارعَ مظلـــــوم مجـــــرا مســـــحبا

ويـــدفن منـــه الصـــالحات وإن يســـيء يكـــن مـــا أســـاء النـــار في راس كبكبـــا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه والخليط لا يتوقع زياله والنسيب لا يخفى والجمال لا يجفى.
ثم ما قران السعد بالكواكب أبهى أثراً ولا أثنى خطراً من اقتران غنى النفس به وانتظامها نسقاً معه فغن الحائز لهما الضارب بسهم فيهما "وقليل ما هم" أينما توجه ورد منهل بر وحط في جناب قبول وضوحك قبل إنزال رحلة وأعطى حكم الصبي على أهله.

وقيـــلَ لـــه أهـــلاً وســـهلاً ومرحبـــا فهـــذا مبيـــتٌ صـــالحٌ ومقيـــل

غير أن الوطن محبوب والمنشأ مألوف واللبيب يحن إلى وطنه حنين النجيب إلى عطنه والكريم لا يجفوا أرضاً بها قوابله ولا ينسى بلداً فيها مراضعه، قال الأول:

أحـــبّ بـــلادَ الله مـــا بـــين مـــنعجٍ إليّ وســـلمى أن يصـــوبَ ســـحابها

بـــلاد بهـــا حـــلّ الشّـــباب تمـــائمي وأوّل أرضٍ مـــسّ جلـــدي ترابهـــا

هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك ومنافستي بلحظة من قربك واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع والغنى ممن سواك عناء والبدل منك أعور والعوض لفاء وكل الصيد في جوف الفرا.

وإذا نظـــــرتُ إلى أمـــــيري زادني ضـــنًّا بـــهِ نظـــري إلى الأمـــراء

وفي كل شجر نار وأستمجد (المرخ والعهفار) فما هذه البراءة ممن يتولاك والميل عمن لا يميل عنك وهلا كان هواك فيمن هواه ورضاك فيمن رضاه لك.

يـــا مـــن يعـــزُّ علينـــا أن نفـــارقهم وجـــداننا كـــلَّ شـــيء بعـــدكم عـــدمُ

أعيذك ونفسي من أن أشيم خلباً وأستمطر جهاماً وأكدم في غير مكدم وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والزخم فما أبسست لك إلا لتدر ولا حركت لك الحوار إلا لتحن ولا نبهتك إلا لأنام ، ولا سريت إليك إلا

لأحمد السرى لديك ، وإنك إن سنيت عقد أمري تيسر ومتى أعذرت في فك أسري لم يتعذر وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة والشفاعة زكاة المروءة وفضل الجاه يعوذ به صدقه.

وإذا امـــرؤٌ أهـــدى إليـــك صـــنيعةً مـــن جاههـــه فكأنّهـــامن مالـــه

لعلي ألقي العصا بذارك وتستقر بي النوى في ظلك وأستأنف التأديب بأدبك والاحتمال على مذهبك فلا أوجد للحاسد مجال لحظة ولا أدع للقادح مساغ لفظة ، والله ميسرك من إطلابي بهذه الطلبة وإشكائي من هذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع وتستودعها أحفظ مستودع حسبما أنت خليق له وأنا منك حري به وذلك بيده وهين عليه " [1]

وبعد أن عرضنا نص هذه الرسالة نقتطف منها بحول الله تعالى ما يكون شاهداً لأغراض بحثنا الذي خصصناه لبلاغة التشبيه والمجاز اللغوي في هذه الرسالة والله المستعان وبه العون ومنه التوفيق.

الفصل الأول

بلاغة التشبيه وسر جماله في الرسالة الجدية

(1) ديوان ابن زيدون (رسائله . أخباره . شعر الملكين) شرح وضبط وتصنيف : كامل كيلاني ، وعبد الرحم خليفة ، ص 333 ـ 343 ، ط / مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى 1351هـ . 1932م

من المسلم به أن الحكم علي الشى فرع عن تصوره وإذا كان الأمر كذلك فمن سبيلنا الآن أن نقدم بين يدي هذا الفصل مدخلاً يكشف لنا عن ماهية التشبيه وأهم معالمه وبعض فوائده حتي يمكن لنا معرفة حدود ما تناوله ابن زيدون من تشبيهات في رسالته المنوط بها هذا البحث فنقول وبالله التوفيق :

التشبيه في اللغة: التمثيل والشبه كالمثل لفظاً ومعنى ، والشبيه المثيل ويقال أشبهه وشابهه أي ماثله وشبهته به ، قال في اللسان (والتشبيه التمثيل) وقال أيضا " الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ المِثْلُ والجمع أَشْباهٌ وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ ماثله " [1] وهو في اصطلاح البلاغيين : الدلالة علي مشاركة أمر لأمر في معني لا علي وجه الاستعارة التحقيقية نحو رأيت أسدا يرمي ، ولا علي وجه الاستعارة بالكناية نحو أنشبت المنية أظفارها ولا علي وجه التجريد الذي في علم البديع نحو قابلت زيداً فلقيني منه أسد فكل من هذه الأنواع فيه دلالة علي مشاركة أمر لأمر ولكن لا يسمي في اصطلاح البيانيين تشبيهاً ، ودخل في التشبيه المقصود ما حذف منه المشبه كقوله تعالي : (**صم بكم عمي فهم لا يرجعون**) [البقرة : 18] أي: هم علي ما اختاره كثير من المحققين [2] لأن المشبه وهم المنافقون مقدر ، والمقدر كالمذكور ، هذا وأركان التشبيه أربعة [3] :-

أ–مشبه

ب– مشبه به وهما طرفا التشبيه

جـ– أداة وهي الكاف وكأن ومثل وما في معني ذلك كالفعل من هذه الأدوات ، نحو : يشابه ويماثل ويحاكي ويضارع ، واسم الفاعل نحو مشابه ومماثل ومحاك ومضارع.

د– وجه الشبه وهو المقصود بقولهم في التعريف (في معنى).

---

(1) لسان العرب لابن منظور ، (189/4) مادة : ش ب هـ ، ط/ دار المعارف

(2) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص 166 ، وينظر الإيضاح في علوم البلاغة ص 159 ، 160

(3) شروح التلخيص (6/3) عقود الجمان ، ص 78

هذا وللتشبيه قيمة عالية عند البلغاء ؛ فهو وسيلة من وسائل البيانيين للتعبير عن مقصودهم والإفصاح عن أغراضهم ، وله فوائد لا تحصي لكثرتها منها:-

أولا: الإيجاز:

حيث إن جملته تغني عن كلام كثير في توضيح مراد المتكلم كما يري في قول النابغة الذبياني يعتذر للنعمان بن المنذر بقوله:

فإنـــك كالليـــل الـــذي هـــو مـــدركي وإن خلـــت أن المنتـــأى عنـــك واســـع

فقد أفاد بالتشبيه سعة نفوذ النعمان واتساع ملكه وأنه لا يفلت من قبضته هارب مهما حاول إذ يصل إليه في كل مكان بالإضافة إلي ما يدل عليه من شدة سخط النعمان وانعكاس ذلك علي نفس النابغة فزعا ورعبا وحيرة وهذا ما جعله يختار الليل مشبها به دون النهار وإن كان بمنزلته في الوصول إلي كل مكان لأن الليل يشعر بالخوف والرهبة والفزع وهي الأشياء التي يحس بها النابغة إزاء سخط النعمان وغضبه عليه فكان التشبيه به أنسب وتتفاوت التشبيهات في الإيجاز ، وهذا أحد أسس التفاضل بينهما إذ يحكم لأوجزها بالفضل إذا ما تواردت علي معني واحد .

ثانياً المبالغة:

لأن التعبير به قدر زائد من إثبات الوصف المراد للمتحدث عنه لا تراه في التعبير المجرد منه فحين نقول: محمد شجاع ونقول محمد كالأسد نجد أن الجملتين تدلان علي وصف محمد بالشجاعة إلا أن دلالة الثانية عليه أبين وأغزر لما فيها من استحضار صورة الأسد وانعكاسها في الذهن علي ما يتخيل من شجاعة محمد وتتفاوت التشبيهات في المبالغة تبعا لتفاوت صياغتها فالتعبير بكأن في قولنا كأن محمداً أسد غير التعبير بالكاف في قولنا محمد كالأسد والتعبير بإسقاط الأداة في قولنا محمد أسد غير التعبير بها.

ثالثاً: التبيين والتوضيح:

وهي وظيفته الأساسية وفائدته الكبرى إذ يخرج الأغمض إلي الأوضح والخفي إلي الجلي

رابعاً التوكيد:

لأنه يعمق المعني ويلح عليه بالتثبيت ويرسم له في لوح الخاطر صورة بارزة الملامح، يقول أبو هلال العسكري :والتشبيه يزيد في المعني وضوحاً ويكسبه تأكيداً وهذا ما أطبق جميع المتكلفين من العرب والعجم عليه.

خامساً: توسيع آفاق التعبير أمام البليغ: إذ يمكنه من أن ينتزع من الشيء الواحد أشباها عدة بمعني أن يجعل الشيء الواحد مشبهاً به لمشبهات مختلفة باختلاف الأحوال التي يمكن أن تؤخذ منه ويدل هو عليها وذلك كالقمر فقد أخذ الشعراء منه أشباها كثيرة تكشف عن مدي افتنانهم به وتنافسهم في الانتزاع منه أخذوا منه الشهرة والاستدارة والاستنارة وبعد المنال والكمال عن النقصان والنقصان عن الكمال وبعد جرمه وقرب ضوئه وظهوره بكل مكان والشعور بأهميته حين تشتد الحاجة إليه إلي غير ذلك من أشباه امتلأت كتب البلاغة بالتمثيل لها

وبالجملة ففوائد التشبيه أكثر وأوفر مما ذكر وحسبك الآن ما أشرت إليه منها.

وإذا تمهد هذا فمن سبيلنا الآن أن ننظر في التشبيهات الواردة في الرسالة الجدية لابن زيدون مجال بحثنا علي ضوء ما تقدم من تلك المقاييس ، إذ ما أوردنا هذا الذي أوردناه من تعريف التشبيه والإشارة إلى أركانه ، والتنبيه علي بعض فوائده إلا توطئة للاستئناس به في أثناء بحث ما ورد في الرسالة من بيان بلاغة التشبيه فيها وأول ما يطالعنا من التشبيهات الواردة في هذه الرسالة قول ابن زيدون (إن سلبتني أعزك الله لباس إنعامك) تشبيه أضيف فيه المشبه به إلى المشبه فهو من قبيل ذهب الأصيل ولجين الماء [1] في قول ابن خفاجة الأندلسي:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ******ذهب الأصيل على لجين الماء

(1) الأصيل : وقت ما بين العصر إلى الغروب ، وقيل ما بين اصفرار الشمس إلى أن تغرب ، واللجين : الفضة السائلة

فقد شبه ابن زيدون هنا الإنعام الكائن من ابن جهور عليه باللباس ، والجهة الجامعة بين المشبه والمشبه به هي الشمول والإحاطة ، وفيه إيماء إلى كثرة أفضال ابن جهور علي ابن زيدون ، وذلك مبالغة في مدحه والاعتراف بجزيل فضله وما هذا شأنه جدير بحثّ ابن جهور علي العطف علي ابن زيدون ، وخليق ببعث نفسه علي السعي في إنقاذه من محنته والعفو عن زلته وإطلاقه من أسره ، ومن ثم فقد عرف ابن زيدون كيف يوقع الكلام موقعه ويصيب به الغرض الذي قصده من استعطاف ابن جهور وإثارة الأريحية في نفسه ، وحثه علي العود عليه بسابق نعمته، وأنت ترى أن هذا التشبيه قد حذف فيه الوجه والأداة وقد اشتهر عن كثير من البلاغيين أن ما هذا شأنه يسمي تشبيهاً بليغاً وكأنهم يعنون بتسميته بليغاً أنه قد بلغ الغاية في دعوي اتحاد طرفي التشبيه وتلك الدعوى تشير إلى أنه لا تفاوت ولا فرق في الصفة التي يراد إلحاق المشبه بالمشبه به فيها بين الطرفين ، ومما يزيد ذلك تقوية للمبالغة في الدعوى إضافة أحد الطرفين إلى الآخر كما في قوله تعالي : (**وهي تمر مر السحاب**) [سورة النمل : 88] ولا يعني قولهم أن هذا النوع من التشبيه يسمي بليغاً أن ذلك لا يكون لغيره من أنواع التشبيه أعني ما ذكرت جميع أطرافه إذ لو حصر هذا النوع أعني ما لم يذكر فيه الوجه والأداة في كونه هو البليغ لربما ادعي أن غيره ليس بليغاً وحينئذ تخرج عن هذا الحد تشبيهات كثيرة شهد لها بغاية البلاغة وإصابتها الغرض ودقة إفصاحها عن كمال المقصود ، وأنت خبير بأن كثيراً من تشبيهات القرآن الكريم قد ذكرت فيها الأداة وهي في الطرف الأعلى من البلاغة ، أعجزت جهابذة البلغاء وأساطين الأدباء بما احتوت عليه من أسرار دقيقة وعبارات رشيقة وإصابة للغرض وإفصاح عن كمال المقصود ، ولعل المعيار الذي ينبغي أن يوصف بالبلاغة في أنواع التشبيه هو ما حقق الغرض وعبر عن المراد وقرب بين المتباعدين ، وعانق بين المعنيين ، وجمع بين المتفرقين في صورة أنيقة وألفاظ رقيقة مع مراعاة لما يستدعيه المقام ومطابقة لما يقتضيه الحال .

نعم إن المبالغة في دعوى اتحاد الطرفين في صفة معينة في هذا النوع من التشبيه لا ينكر تحقيقها أحد حتي بلغ الأمر في ذلك أن عدّه بعض القدماء من الاستعارة لجعلهم هذه الدعوى من أغراضها الأساسية المقصودة منها ؛ ولا سيما إذا كان المشبه مقدراً كما في قوله تعالي : (**صم بكم عمي** ...) [البقرة : 18] أي : هم كالصم البكم العمي ، وقول الشاعر:-

أســـــد علــــيّ وفي الحـــــروب نعامــــة   فــــدخاء تنفـــر مــــن صــــفير الصـــافر

وناقش ذلك السعد في مطوله (1) ، واختار أن التحقيق عَدُّ هذا النوع من التشبيه وفي كلام الخطيب ما يدل على أن ذلك هو التحقيق (2) وأنه اختيار المحققين ومنهم الشيخ عبدالقاهر الجرجاني والخطيب ، وإن ذكر أن هذا النوع من التشبيه هو أقوي مراتبه إلا أنه ذكر أن التشبيه البليغ هو التشبيه البعيد ؛ فقال : " والتشبيه البعيد هو التشبيه البليغ ، والبليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع ؛ أعني البعيد لغرابته " (3) وبعض من فسر كلامه في ذلك يبين أن معني البليغ في كلامه إنما هو من البلوغ بمعني الحسن واللطف والقبول لا من البلاغة المصطلح عليها التي هي مطابقة الكلام لمقتضي الحال ، ويعلل ذلك بأنه لو كان المقصود بالبليغ في كلام الخطيب راجعاً إلى البلاغة الاصطلاحية لكان القريب المبتذل أيضا منها إذا تحقق فيه شرط المطابقة لمقتضي الحال ، يقول الدسوقي تعليقاً علي كلام السعد الشارح لكلام الخطيب في التلخيص : " والحاصل أن بلاغة التشبيه منظور فيها إلى كونه بعيداً غريباً سواء كان وجه الشبه فيه يتركب من أمور كثيرة أو لا ، وسواء ذكرت الأداة أو حذفت وحينئذ فإطلاق البليغ علي التشبيه الذي حذفت أداته اطلاقاً شائعاً طريقة لبعضهم ، والا فهو يسمي مؤكداً كما يأتي ، وقول المصنف ما كان من هذا الضرب ليس المراد أنه من أفراد هذا الضرب كما علمت وحينئذ فالأوضح أن يقول والتشبيه البليغ هو هذا الضرب ثم إن المراد بالبليغ هنا الواصل لدرجة القبول فهو من البلوغ بمعني الوصول أو اللطيف الحسن ، مأخوذ من البلاغة بمعني اللطف والحسن مجازا لا من البلاغة المصطلح عليها لأنه إنما يوصف بها الكلام والمتكلم ، لا التشبيه ولا يقال يصح إرادة المصطلح عليها باعتبار الكلام الذي فيه التشبيه ؛ لأنا نقول بلاغته حينئذ باعتبار المطابقة لمقتضي الحال ، ولا وجه لاختصاص الغريب بالبليغ حينئذ أو ربما كان القريب المبتذل مطابقاً لمقتضي الحال كما إذا كان الخطاب مع شخص

(1) ينظر : المطول ، ص 359 ، 360 ، وينظر معه : الإيضاح ، ص 160

(2) ينظر : الإيضاح ، ص 169

(3) المرجع السابق ، 169

يقتضي حاله تشبيها مبتذلاً ببلادته وسوء فهمه فلا يكون الغريب المبتذل كذا قرر شيخنا العدوي" (1) أقول وإذا كان هذا الكلام الذي أورده الدسوقي مع تقرير العدوي إنما يرد علي كلام الخطيب لكونه اعتبر أن التشبيه البليغ هو البعيد الغريب فقط أو لعلهما فهما ذلك من كلامه رحمهم الله جميعاً فإن ما أورده الدسوقي عن تقرير العدوي وإن فهم منه الاعتراض على حصر الخطيب التشبيه البليغ في البعيد الغريب ؛ فإنه يفهم منه تأييد ما ادعيناه أولاً من أن الأسلم ألا يحصر التشبيه البليغ فيما حذفت أداته فقط؛ بل يكون المعيار في وصفه بالبلاغة كونه مطابقاً لمقتضي الحال وافياً لغرض المقصود سواء ذكرت فيه الأداة أو حذفت أو كان الوجه فيه مفرداً أو مركباً ، ولا يضرنا بعد ذلك أن نقول إن المقصود بالبليغ البلاغة أو البلوغ والقبول والحسن واللطف فكل ذلك من البلاغة وهذا شيء اقتضي المقام أن نشير إلى الكلام فيه بإيجاز ثم نعود إلى كلام ابن زيدون.

وقوله (لباس إنعامك) فنقول إنه محتمل للاستعارة أيضا وسيأتي الكلام فيها إن شاء الله – تعالي – وما قررته في عبارة ابن زيدون هذه من احتمال التشبيه والاستعارة إنما هو علي نحو ما احتملوه في لباس التقوي من قوله تعالي : (**ولباس التقوى ذلك خير**) [سورة الأعراف : 26] حيث أجاز كثير من المفسرين كونه من باب الحقيقة إن أريد بالتقوي معناها اللغوي وهو الوقاية وأريد باللباس الدروع التي تلبس في الحرب لتقي الملابس من الطعن بالسهام والضرب بالسيوف وهذا الاحتمال واضح علي قراءة النصب عطفاً علي قوله تعالي : (**قد أنزلنا عليكم لباساً**) من الآية [2] وأما علي قراءة الرفع علي الاستئناف فاحتمال كونه من باب التشبيه المضاف فيه المشبه به إلى المشبه ، وكونه من باب الاستعارة التصريحية أو المكنية أوضح وأقرب ، واحتمال الحقيقة وإن جاز في الآية الكريمة علي نحو ما قررته إلا أن أراه بعيداً في قول ابن زيدون الذي نحن بصدد الكلام فيه ؛ وذلك لأن سياق الكلام يأباه ، والغرض المقصود يتبرأ منه فلم يبق إلا احتمال التشبيه علي النحو الذي ذكرته والاستعارة وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالي وعن نوعها وبيان أجزائها، وانظر كيف اختار ابن زيدون الكلمات الممهدة للغرض من ذلك التشبيه فإن تأملت قوله (سلبتني) ألفيت في طياته إشارة

---

(1) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (457/3 ، 458)

(2) حاشية الشهاب على البيضاوي (61/4) ط / بيروت ، تفسير روح المعاني (104/8) ط/ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان

إلى الشكوى مما أصابه والشكوى تلين القلوب وتحرك كوامن النفوس بالعطف علي الشاكي ومحاولة دفع أسبابها عنه ، كما أن قوله (أعزك الله) دعاء وقع في موقعه المناسب له ؛ فقد جيء به بين الفعل (سلبتني) وأحد مفعوليه (لباس إنعامك) اهتماماً به لكونه أدعي إلى الأدب في مقام مخاطبة الملوك وأولي الأمر ، وأقرب إلى حثهم علي نيل المرغوب منهم وأنسب بالشكوى إذ هو قرين لها غالباً ، وتتوالى التشبيهات في هذه الرسالة لتفصح لنا عن حسن اختيار ابن زيدون للعبارات وتأثره بكلام من سبقه من الشعراء والأدباء ، فهو يقول : (واني لأتجلد وأري الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع [1] فأقول هل أنا إلا يد أدماها سوارها وجبين عضه إكليله ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه علي النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول : (فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس احياناً علي من يرحم) [2]

---

(1) مقتبس من بيت لأبي ذؤيب ، في قصيدته التي مطلعها :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

(2) أتضعضع : أتفعّل من الضعضعة ، وهي الهدم والخراب، السوار : ما تلبسه المرأة في معصمها ، وهو من الذهب ونحوه ، الجبين هو ما فوق الصدغ ، وهما جبينان ، عن يمين الجبهة ويسارها ، عضه : العض معروف ، وهو إذا كان حقيقة فهو إما بالأسنان ، ويكتب بالضاد المعجمة ، وإذا كان مجازا ؛ مثل عض الزمان ، وعضات الحروب كتبت بالظاء القائمة ، الإكليل : العصابة بالرأس ، تكلل باللؤلؤ ، ويسمى التاج إكليلا، المشرفي : بفتح الميم والراء ، وتشديد الياء ـ السيف منسوب إلى مشارف ، وهي قرى من أرض العرب ، ولا يقال سيف مشارفي ؛ لأن الجموع لا ينسب إليها إذا كانت على هذا الوزن لا يقال : مواليي ، ولا جعافري ، ولا عباقري ، الصاقل : القين الذي يجلو السيوف من الصدأ ، السمهري : الرمح الصلب ، وقيل منسوب إلى سمهر ، وهو رجل كان يقوم الرماح ، مثقفه : مقوّمه ، والتثقيف : التقويم ، يزدجر : من الازدجار ، وهو الزجر ، والزجر المنع ، يقال : زجره فازدجر ، وازتجر ، الحزم : ضبط الرجل أمره والأخذ فيه بالثقة ... يُنظر : تمام المتون ، ص 71... (يُنظر :تمام المتون للصفدي ، ص 65 ـ 71) ، وهو يريد البيت الذي قاله أبو تمام من قصيدة مدح بها مالك بن طوق ... يُنظر : السابق ، ص 71

معني هذا كما قال الصفدي : أنه لما قال : (أتجلد وأري الشامتين أني لا أتضعضع) لما نزل بي منك فأكابر نفسي وأريها الباطل حقاً ، فقال ما أنا إلا يد أدماها سوارها الذي تحلت وتزينت به وجبين عضه تاجه الذي وضعه فوقه ليتجمل به ويتحلي بجواهره ، فما ألوم أحداً فعل بي ذلك[1].

أقول يشبه نفسه باليد التي أدماها سوارها فلا يجد من فُعل به ذلك ضيقاً ولا ضجراً مما حدث ليده من ذلك السوار ؛ لأنه حلية له ، فهو وإن أصابه ألم منه إلا أن ما يحسن عنده من التحلي به والتجمل ينسيه ذلك الألم ، فلا يعده بالنسبة إلى ذلك شيئاً بل يصبر عليه ويتجلد على ضرره ؛ من أجل ما فيه من منفعة ومصلحة ، وهذا من أنواع التشبيه الذي عده كثير من البلاغيين من التشبيه البليغ لحذف وجهه وأداته ، وقد مضي الكلام في ذلك وهو في الحقيقة تشبيه واف بالغرض معبر عما في نفس الكاتب ؛ إذ قد أشار إلى ما يلقاه من ألم في حبسه ومن تعب من تلك المصيبة التي نزلت به ، ولكنه مع إظهار تلك الشكوي لا يهمل جانب الأدب مع الأمير ، وكأنه يريد أن يوهمه أن ذلك الذي حدث منه له ـ وان كان في ظاهره ضرر ـ إلا أنه يخفي في باطنه منفعة كبرى ومصلحة عظمى وفي ذلك إشارة إلى حكمة ذلك الأمير وإشعار بأن ما يفعله به إنما تقتضيه المصلحة وتستدعيه الحكمة ، وفي ذلك إيماء إلى مزيد استعطافه له وحث علي تخليصه مما نزل به ، يؤكد ذلك المعني تشبيه نفسه أيضا بكونه جبيناً عضه إكليله ، ويقال فيه ما قيل في سابقه ، وفيه إشارة إلي كمال محبته للأمير ، فمهما أصابه من الألم بسببه ؛ فإن محبته له تجعله يغض عن ما يترتب علي ذلك من البغض والضجر ممن تسبب له في ذلك ، فيُري نفسه أن الضرر نفع والألم راحة ولذة ، ويوهم نفسه بذلك توطيناً لها علي الصبر وكفاً لها عن الجزع وكأنه يريد أن يقول إذا آلمني الأمير بعقابه فقد زانني بإنعامه فإساءته ناجمة عن إحسانه كاليد التي يدميها السوار ، وتلك التشبيهات وهذه المعاني استقاها ابن زيدون من ثقافته الواسعة وكثرة اطلاعه علي المعاني التي تناولها الشعراء إذ أن هذا المعني مأخوذ من قول المتنبي [2] :-

بنـــو كعـــب ومـــا أثـــرت فـــيهم يـــــد لم يـــــدمها إلا الســـــوار

(1) يُنظر : السابق ، ص 71

(2) ينظر : شرح ديوان ابن زيدون ، لعلي عبد العظيم ، ص 740

لهـــــا مـــــن قطعـــــه ألم ونقـــــض وفيهـــــا مـــــن جلالتـــــه افتخـــــار

وهذا المعني تراه أيضا في تشبيه ابن زيدون نفسه بالسيف المشرفي الذي ألصقه بالأرض مصلحه الذي يريد أن يجلوه من الصدأ الذي عرض له وبالرمح الذي عرضه علي النار مثقفه ليقومه لأجل ما عرض له من الاعوجاج وغيره .

وتلك المعاني الحسية أمثلة أراد ابن زيدون أن يشير بها الي أن ما فعله به الأمير من حبس وإبعاد ما كان إلا عن إصلاح له ومنفعة تعود عليه ، وفي ذلك مزيد استعطاف للأمير ونهاية لكمال الأدب معه ، وكذلك تشبيه نفسه بالعبد أراد سيده تأديبه من أجل إصلاحه وتقويمه فهو يقسو عليه أحياناً فيعامله بالشدة ويرحمه أحياناً فيعامله بالرفق ، مراعاة للحكمة لكمال تأديبه ودوام إصلاحه ، ووجه الشبه الجامع بين المشبه والمشبه به في هذه التشبيهات السابقة ويحتمل أن يقال : إنه هو الشيء الذي يتحمل ما فيه من ضرر من أجل ما يترتب على ذلك التحمل من منفعة ، إما محققة أو متوهمة ، وهو مفرد وإن قيد بها ما ذكرته من هذه الصفات ، والذي يقوي ذلك كون هذه التشبيهات السابقة التي نحن بصدد الكلام فيها ذات أطراف مفردة أيضاً لكن كل واحد من المشبهات بها فيها مقيد ببعض صفات كما هو واضح ، وإما أن يكون وجه الشبه فيها كمال الانقياد من شخص إلى شخص حتي بلغ من انقياده له أنه صار كيده وجبينه وسيفه ورمحه وعبده ، وإن كنت أري أن الاحتمال الأول أولى ، وإذا تأملت وجدت ابن زيدون ساق هذه التشبيهات وكأنه أراد أن يوهم الأمير وقارئ هذه الرسالة أن ما صيغت به من أسلوب أخبار مسلمة ومؤكدة لا جدال فيها ، فأما كونها مسلمة ؛ فإنه ساق هذا الأسلوب الخبري في صورة الاستفهام التقريري الذي لا يجد من سمعه إلا التسليم بجوابه الذي أراده ابن زيدون ، وذلك لأنه لو ساقه في صيغة الخبر ؛ لكان محتملاً للصدق والكذب كما هو الشأن في الخبر ، وأما التأكيد فلأن جمل هذه التشبيهات متضمنة معني القصر؛ إذ معني قوله (هل أنا إلا يد) وما عطف عليه : ما أنا إلا يد وما أنا إلا جبين وما أنا إلا سيف ورمح وعبد، وأنت خبير بأن التأكيد من أهم فوائد القصر.

ومن التشبيهات الواردة في الرسالة ما جاء في قول ابن زيدون : (وهذه النَّبْوَة غمرةٌ ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع) وهذان التشبيهان كل منهما جدير ببعث الأمل في نفس ابن زيدون التي

أضنتها الغربة ، وآلمها السجن وكلاهما أيضا خليق بتسلية نفسه عما هي فيه ، وترقبه للفرج الذي هو في نظره قريب الحصول ، وقد اختار لذلك ما يعبر عن هذا الأمر بهذين التشبيهين الرائعين فهو في أولهما يشبه حاله وما يلقاه من ألم بسبب سجنه وبعده عن ابن جهور وترقبه لزوال كل هذا ، وانتظار الفرج القريب بحال الشدة التي تحيط بمن نزلت به من كل جانب لأن اختيار كلمة غمرة يوحي بذلك ، ثم لا تلبث أن تزول ويعقبها فرح وسرور وحينئذ يكون وجه الشبه الهيئة الحاصلة من الشدة تنزل بالإنسان فتحيط به ، ثم سرعان ما تزول وتنقضي ، وعلي ذلك فهذا التشبيه من قبيل التشبيه المركب في جميع أطرافه كما رأيت في تقريره ، ويحتمل أن يكون من قبيل المفرد ويكون ابن زيدون قد شبه ما يلقاه من ألم في سجنه وجفاء الأمير ابن جهور له بالشدة التي تغمر الإنسان ثم تزول ويكون وجه الشبه سرعة الزوال والانقضاء ، وهذا الاحتمال وإن كان خالياً من التكلف في تقرير المشبه والمشبه به فيه ، إلا أن وجه الشبه فيما أراه لا يكاد يكون وافياً بما هو المقصود من طرفي التشبيه ، وعلي كل حال فالأمران محتملان وكذلك يقال في التشبيه الآخر أعني في قوله : (وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع) وفي قوله سحابه صيف إيذان بسرعة زوال تلك الشدة إذ أن سحابة الصيف لا قرار لها في مكان من السماء ، ومن ثم ضُرب بها المثل في سرعة انقضاء الدنيا وعدم استقرارها ، فقيل : الدنيا كسحابة صيف أو كزيارة طيف وأنت تري أن هذين التشبيهين من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس والانتقال من المعقول إلي المحسوس يورث النفس أنساً ويزيد الشيء لديها تقريراً وتأكيداً فيتمكن عندها فضل تمكن لأنها بالمحسوس آنس وهو بها أمس ، ومن ثم تري هذا النوع يكثر في التشبيه إذا كان الغرض منه تقرير المشبه وتأكيده وتثبيته وفي مثل هذا المعني يقول الشيخ عبد القاهر: " ومعلومٌ أن العلم الأوّل أتى النفسَ أوّلاً من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظر والرَّويَّة، فهو إذَنْ أمسُّ بها رَحِماً، وأقوى لديها ذِمَاً، وأقدم لها صُحْبة، وآكدُ عندها حُرمة.. وإذا نقلتها في الشيء عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم وللجديد بالحبيب القديم " [1]

ومن التشبيهات الواردة في الرسالة ما جاء في قول ابن زيدون مخاطباً للأمير ابن جهور: (حاشاك أن أعد من العاملة الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق) " بعد أن عمل جهد المستطيع في الثناء

(1) أسرار البلاغة ، تح : محمود شاكر ، ص 122 ، ط/ المدني بالقاهرة ، الطبعة الأولى

عليه أراد أن يستميله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزهه عن أن يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا أو تعبوا في الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة في الآخرة" [1] وتوضيح صاحب كتاب إظهار المكنون لكلام ابن زيدون هذا يفهم منه أن قول ابن زيدون(حاشاك أن أعد من العاملة الناصبة) فيه تشبيه مفاده أن ابن زيدون ينزه الأمير عن أن يجعل حاله معه بعد اجتهاده في الثناء عليه وتعبه في تعداد محاسنه رجاء أن ينال منه حاجته ويحقق الفائدة المرجوة من الثناء عليه ، وهو يخشي أن لا تتحقق تلك الفائدة فلا يكون لثنائه أثر في نفس ابن جهور فلا تتحرك نفسه بأن يحقق له ما يرجوه منه فتكون حال ابن زيدون مع ابن جهور مشبهة بحال الكفار الذين عملوا في الدنيا أعمالاً تعبوا فيها واجتهدوا ظانين أنها تنفعهم ، ولكونها خالية من الإيمان ومن قصد وجه الله تعالي لم تنفعهم في الآخرة ، ولم تحقق لهم ما كانوا يرجون منها .

وهو تشبيه مركب في طرفيه كما تري ، ووجه الشبه إما أن يكون مفردا وهو بطلان الأثر وانعدام النفع فيما يرجى منه النفع ، وإما أن يكون مركباً وحينئذ يقال إنه الهيئة الحاصلة من الشيء الذي يتعب الإنسان فيه نفسه وهو يظن أنه ينفعه فلا يتحقق ظنه فيخيب أمله وتناله بذلك حسرة وألم ، وعلي كل حال فالوجوه البلاغية لا تتزاحم كما هو معروف ، وقد يكون هذا من باب تشبيه المحسوس بالمعقول إذا كان المقصود أن ثناء ابن زيدون علي ابن جهور من الأمور المسموعة بالآذان وعمله في خدمته من الأمور المبصرة بالعيون ، وأما المشبه به وهو جزاء الكفار علي أعمالهم وعدم نفعها لهم في الآخرة فهو من الأمور الغيبية وهي إلي المعقولات أقرب وإن كان من المحقق رؤية ذلك بالعيون هناك ، والمعروف عند القوم أن المحسوس أقوي من المعقول وأشهر عند المخاطبين ، وهذا مما ينبغي أن يتحقق في المشبه به فحين يكون ذلك متحققاً في المشبه دون المشبه به ؛ فإن التشبيه حينئذ جاء كما يقول البلاغيون علي خلاف الأصل ، والنكتة فيه تتحقق في المبالغة في ادعاء أن المعقول صار كأنه أقوي وأشهر من المحسوس فجعل أصلاً فاستحق أن يكون مشبها به ، وأما قول ابن زيدون " وأكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وهي تحترق " فهو أول تشبيه يواجهنا في رسالته هذه ذكرت فيه أداة التشبيه ، فهو ينزه الأمير أن تشبه حاله معه من الثناء عليه وتعداد محاسنه وقيامه بخدمته فيناله بذلك نفع عظيم بينما ينال ابن زيدون الضرر الشديد الذي يكاد يهلكه ويقضي عليه بحال الفتيلة المنصوبة تضيء للناس

(1) إظهار المكنون ، لمصطفى عناني ، ص 67 ، ط/ المطبعة الرحمانية .

فينتفعون بها بينما تهلكها النار شيئا فشيئا حتي تفنيها، ووجه الشبه فيه ظاهر وهو الشيء ينتفع به الناس بينما يناله في نفسه بسبب ذلك الضرر البالغ وهو تشبيه شائع بين الأدباء والبلغاء ولا سيما وقد استعمله سيدهم وإمامهم (صلى الله عليه وسلم) وهو مرشد الإنسانية ومعلم البشرية ، فقد نقل الصفدي في شرحه لقول ابن زيدون الذي نحن بصدد الكلام عنه حديثاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) يفيد ذلك المعني فقال الصفدي : " ذكر الحافظ شهريار بن شيرويه في كتاب الفردوس الأعلي أنبأنا أبي . رحمه الله تعالي . أنبأنا أبو علي بن البناء البغدادي حدّثنا أبو علي بن شذان حدثنا محمد بن مسلمة الحراني عند جعفر بن مخارق عن إبراهيم عن الحسن عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" العالم بغير عمل كالمصباح يحرق نفسه ويضيء للناس " وقال: " مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسي نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه " رواه الطبراني [1]

كما تناول هذا المعني كثير من الشعراء ، فقد قال العباس بن الأحنف [2] :

أُحـــرم مـــنكم بمـــا أقـــول وقـــد نـــال بـــه العاشـــقون مـــن عشـــقوا

صـــرت كـــأني ذبالـــة نصـــبت تضـــيء للنـــاس وهـــي تحـــترق

أقول وهذا المعني بعينه هو الذي أخذه ابن زيدون في قوله الذي معنا وقال الشاعر [3] :-

وفتيلـــة المصـــباح تحـــرق نفســـها وتضـــيء للســـاري وأنـــت كـــذاكا

وقال أبو المظفر محمد بن علي الواعظ الدوري [4] :-

---

(1) تمام المتون ، ص 307 ، ط / المكتبة العصرية

(2) المصدر السابق ، ص 305

(3) تمام المتون ، ص 306

(4) المصدر السابق ، ص 306

يتـــوبُ علـــى يَـــدي قـــومٌ عُصـــاةٌ أخَـــافَتْهم مـــن البـــاري ذنـــوبُ

وقلـــبي مظلـــمٌ مـــن طـــول مـــا قـــد جـــنى فأنـــا علـــى يـــد مـــن أتـــوبُ

كـــأنّي شمعـــةٌ مـــا بـــين قـــومٍ تضـــيءُ لهـــم ويحرقهـــا لهيـــبُ

فهذا التشبيه من ابن زيدون إذاً مثل شائع بين الشعراء والأدباء يدل علي سعة اطلاعه وعمق ثقافته كما أنه يعرب عما تشتمل عليه نفس ابن زيدون من إباء وعزة وعدم رضا بالضيم وإهمال المنزلة ، فإن قيل إن في كلامه هذا امتنان علي الأمير ابن جهور وأنه ما خدمه بما خدمه به إلا ابتغاء الجزاء وطلب المنفعة ، والتصريح بمثل هذا مما لا يرضاه أصحاب المروءات ولا يقتضيه كمال المحبة ، قيل: إنما ذكر هذا مع تنزيه ابن جهور عن أن يكون ممن لا يعرفون للمخلصين لهم حقهم في إكرامهم ورفع منزلتهم عندهم ، ثم إن الذي دفع ابن زيدون إلي التصريح بهذا الذي صرح به للأمير إنما هو ما أصابه من الألم والإبعاد في طول سجنه مع اعتقاده أنه لم يعمل ذنباً يستحق به ذلك.

يقول ابن زيدون : " وإني علي المعرفة بأن الجلاء سباء والنقلة مثلة " ثم يقول : " عارف بأن الأدب الوطن لا يخشي فراقه والخليط لا يتوقع زياله ، والنسيب لا يجفى [1] والجمال لا يخفى " يريد أن يقول إني مع معرفتي بأن خروجي من وطني أسر لي و دفن لمحاسني وانتقالي منه إلي غيره مع عدم معرفة أهل هذه الجهات بما أنا متَحلٍّ به من العلوم والآداب تنكيل بمحاسني وتضييع لبهجتي فيجهل قدري وتهضم حقوقي وتدفن مني الصالحات ، وتشاع علي قلتها السيئات ، لا أعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقي ؛ بل وطني الذي أعول عليه إنما هو

(1)الجلاء الخروج من البلد والوطن ، السباء والسبي والإسباء ؛ كله بمعنى الأسر ، النقلة : الانتقال من مكان إلى مكان ، المثلة : التنكيل ، مثل بالقتيل ، الخليط : المخالط ، كالنديم والمنادم ، ويجمع على خلطاء وخلط ، الزيال : مصدر زايله مزايلة وزِيالا : إذا فارقه ، النسيب : ذو النسب ، يجفى من الجفاء ، أي الهجر والبعد ينظر: تمام المتون ، ص 319

الأدب ، وهو ملازم لي أينما حللت وارتحلت ، فلا أخشي فراقه وهو سميرى الملازم فلا أتوقع غيابه وأن النسيب أينما حل فهو معروف ، والجمال أينما وجد فهو مألوف ، وحيث هو كذلك فلا يخشي من الانتقال بأساً ، ولا من التحول ضيما.

من هذا البيان يتضح أن ابن زيدون يشبه الجلاء . أي : الخروج عن الوطن والتحول عنه إلي قوم لا يعرفون محاسنه و يجهلون قدره وأدبه وعلمه . بالأسر ؛ فإن الأسير يعاني من الذلة والغربة ما يعاني ، وتدفن حسناته تشاع سيئاته ويعيش بين آسريه ذليلاً مهاناً ، وهذا الكلام الذي قاله ابن زيدون مثل عربي أصيل ، كما أنه يشبه الانتقال عن الوطن بما فيه من العناء والعذاب بالتمثيل بالقتيل الذي يجدع أنفه وتقطع أذنه تنكيلاً به وازدراء لشأنه ، وهذا مثلٌ مولَّدٌ كما يفهم من كلام الصفدي ولعمري لقد أحسن ابن زيدون في اختيار هذين المثلين ، أو قل هذين التشبيهين في هذا الموضع ؛ فإن الغريب كالأسير ، حسناته مهجورة ، وسيئاته منشورة ، كيف لا وقد قرن الله سبحانه و تعالي الخروج عن الوطن بالقتل في قوله تعالي : (**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم**) [سورة النساء : 66] وهذان التشبيهان يكشفان عما يتحلى به ابن زيدون من ثقافة وكثرة اطلاع ، حتي علي أمثال العرب وغيرهم كما أنهما يبينان عما في نفسه من الألم المقرون بالحيرة التي نشعر بها واضحة من خلال هذه الفقرة التي أوردتها عنه من رسالته ، فهو وإن كان يعرف ما في التحول عن الوطن من الألم والغربة وكثرة المعاناة ، وهذا يدل علي أنه لا يؤثر ذلك ولا يفكر فيه إلا أنه يعود فيخبر أن الوطن الحقيقي بالنسبة له هو الأدب والعلم الذي هو معه أينما ارتحل وحيثما حل ، وكأنه بذلك يهون علي نفسه الخروج عن الوطن ، ولا مانع من إيثاره ذلك إذا اشتدت به المعاناة في وطنه ما دام أدبه معه وعلمه يصاحبه , هذا وإن روعي تشبيه الهيئة الحاصلة من حال الخروج عن الوطن مع ما يعاني الإنسان فيه من ذل التغرب وعدم معرفة قدره والجهل بنسبه, بالهيئة الحاصلة من حال الأسير وما يعانيه من ذلة بين آسريه وازدراء لشأنه ؛ كان التشبيه مركبا ، والوجه كذلك ، وإن روعي تشبيه مجرد الخروج عن الوطن بالأسر كان التشبيه مفردا ، ووجه التشبيه كذلك ، والأول فيما أراه أظهر وأوضح ، وكذا يقال في قوله : " والنقلة مثلة " وأما قوله : " عارف أن الأدب الوطن " ....إلخ ؛ فهو تشبيه للأدب بالوطن من حيث إن الوطن مألوف ومحبوب عند صاحبه ، يجد فيه عزته ومنعته ، وكذلك أدب الإنسان وعلمه سبيل إلي أن يكون صاحبه محبوباً مألوفاً بين الناس أينما حل ، فلا يشعر بالغربة ، يحس أنه بين أهله

وأحبابه ، ولا يخفي تعريف الطرفين بالألف واللام الذي يدل علي المبالغة المقبولة ، فكأن ابن زيدون يدعي أن الوطن الحقيقي إنما هو علم الإنسان وأدبه وخلقه ، فهذا الذي يثمر الألفة الحقيقية ، وينبت لصاحبه المحبة في قلوب الناس ، ولذلك قال عن صاحب الأدب بأنه لا يخشى فراقه وأنه الخليط الذي لا يتوقع زياله وأنه النسيب لا يجفي والجمال الذي لا يخفي .

ومن التشبيهات الواردة في الرسالة ما جاء في قوله : " غير أن الوطن محبوب والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن إلى وطنه حنين النجيب إلي عطنه ، والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله ، ولا ينسي بلداً فيها مراضعه " [1] بعد أن بين له أن سديد الرأي الانتقال ، وأنه لا يخاف عاقبة ذلك لأدبه وغني نفسه ؛ أراد أن يبين له السبب الحامل علي المكث ، فقال : إن الوطن محبوب والمنشأ مألوف

وما من غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو ! فهو أول أرض وجد بها ، وأول تربة تضمخ بها جسده ، وأول بقعة نما فيها فكره ، وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع إخوان وأحباب وخلان وأتراب فإذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال ، ورأي أغصان شبابه تميد علي تلك الأوطان ، وتمايل مع النسيم تمايل البان ، فيحن إليها حنين الغريب إلى وطنه ، وأنه ليس من كرم الأصل وشرف المحتد أن يهجر الإنسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجميع في أثناء الصغر ، فالواجب عليه أن يصلهن في إبان الكبر حتي يجنين ثمرات أتعابهن ويسررن بحسن معاملته لهن [2] , وشاهدنا المقصود في قول ابن زيدون : " واللبيب يحن إلي وطنه حنين النجيب إلى عطنه ، فيه يشبه ابن زيدون حنين العاقل ؛ أعني المصدر المؤكد للفعل يحن والمفهوم من قوله حنين النجيب ، فهو كقولهم أقدم إقدام الأسد أي إقداماً كإقدام الأسد ، ومنه قول الشاعر:

---

(1) اللبيب : فعيل من اللب ، وهو العقل ، وأولو الألباب : أصحاب العقول ، والحنين والتوقان ، والنجيب : الواحد من الإبل ، والجمع النجُب والنجائب ، والعطن والمعاطن : واحد الأعطان والمعاطن ، وهي مبارك الإبل حول الماء لتشرب عللا بعد نهل ، فإذا رويت ردت إلى المرعى ... يُنظر : تمام المتون ، ص 330 ، 331

(2) إظهار المكنون . شرح رسالة ابن زيدون ، ص 72

إِقْـــدَامَ عَمْـــرٍو فِي سَمَاحَـــةِ حَـــاتِمٍ فِي حِلْـــمِ أَحْنَـــفَ فِي ذَكَـــاءِ إِيَـــاسِ

و كذلك قوله تعالي : (**وهي تمر مر السحاب**) [سورة النمل : 88] إذ التقدير وهي تمر مراً كمر السحاب ، وههنا يكون تقدير كلام ابن زيدون : واللبيب يحن إلى وطنه حنينا كحنين النجيب إلى عطنه ، وهو تشبيه مفرد كما ترى ، وحنين الإنسان إلى وطنه إنما ينبع من عقله وقلبه وعاطفته كما هو معروف ، وحنين البعير إلى مبركه حول الماء ؛ إنما ينبع من غريزة وضعها الله سبحانه و تعالي فيه كسائر الحيوانات فهو القائل سبحانه : (**الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى**) [سورة طه : 50] فإن قيل إن المعلوم في التشبيه أن يكون المشبه به أقوي وأتم في وجه الشبه ، حتي يلحق به المشبه فيتضح ، ومن المعلوم أن دافع الحنين عند الإنسان عقل يجول به فكر وقلب يحركه شوق وعاطفة تنشأ عن ذلك كله وأما الحيوان فلا يدفع الحنين عنده إلى ما يحن إليه إلا غريزة و طبع فكان ينبغي علي ذلك أن يكون المشبه مشبهاً به وبالعكس .

قيل إن الدواعي عند الإنسان التي قد تنسيه الحنين إلى وطنه ، وبسببها يتحول قلبه ، ولأجلها تضعف عاطفته ، فيصير ذلك الدافع عنده ضعيفا كثيرة ، وأما الحيوان فليس له من الدواعي ما يُضعف عنده تلك الغريزة ، وينسى بسببه ذلك الطبع ، فمن ثم ربما كان دافع الحنين الذي تتحكم فيه الغريزة ويقويه الطبع عنده أقوى من الإنسان من تلك الجهة فمن ثم صح أن يكون المشبه به ههنا أصلا ، ولذا ألحق به ما جاز أن نسميه فرعا وهو المشبه ، ولا ينبغي أن نتكلف فنجعل هذا من قبيل التشبيه المقلوب ادعاء كما في قول الشاعر

[من الكامل] :

وَبَـــــدا الصَّـــــباحُ كـــــأن غُرَّتَـــــه وَجـــــهُ الخَلِيفـــــةِ حـــــين يُمتَـــــدَحُ

ولا يخفى عليك بعد ذلك أن وجه الشبه فيما نحن فيه هو انبعاث النفس وميلها إلى ما أَلِفت واعتادت ، وقد وضّحه ابن زيدون في الفقرة التي نقلتها عنه سابقا بما لا مزيد عليه .

وإذ قد أتينا على ما وجدناه من التشبيهات في الكلام المنثور في الرسالة الجدية لابن زيدون ؛ فلعلك قد وقفت على أن تشبيهات ابن زيدون كانت سهلة سلسة ، مطبوعة غير مصنوعة لا تكلف فيها ولا بعد ولا غموض ، وأنها جاءت وافية بالغرض المقصود منها ، متناسبة معه ، متمشية مع السياق ، لا تكاد تجد غيرها يسد مسدّها في موضعها ، وهذا دليل على فطنة عالية ، وتصرف في أساليب الكلام ، وحسن اختيار اللفظ المناسب في الموضع المناسب ، وما ذلك إلا لعمق في تدبر المعاني ، واتساع في مجالات الخيال الذي صور لك صاحبه الشيء ، كأنك تراه فتعيش معه في إحساسه وتشاركه في مشاعره فتتألم بألمه وتفرح بفرحه ، فما التشبه إلا صورة لما يحس به المتكلم ، وصدى لما في نفسه ، فكلما قوي ذلك الإحساس عنده واستطاع أن يُفرغه في قالب مناسب بما هو في الواقع ، ونفس الأمر اقتضى ذلك أن يشاركه المخاطب في ما يريد أن يوصله إليه ، وتراه يدخل إلى الآذان بلا استئذان كما قيل ، فتهش له النفوس ، وتفتح له أبواب القلوب فيتمكن فيها فضل تمكن ، ولعلك أيضا قد وقفت على أن تشبيهات ابن زيدون الواردة في رسالته قد جاء أكثرها بل كلها إلا تشبيها واحدا من نوع التشبيه محذوف الوجه والأداة ، الأمر الذي اقتضى منا أن نذكر نبذة من كلام البلاغيين عن هذا النوع من التشبيه ، ووجه اشتهاره عندهم بأنه التشبيه البليغ ، فلا تحسب أن هذا الذي ذكرناه فيه فضول من القول ، واستطرادٌ لا يقتضيه المقام ، وقد رأينا أيضا أن كثيرا من تشبيهات هذه الرسالة قد استقاها ابن زيدون من كلام غيره من الأدباء والشعراء أو من غيرهم ، كما أن بعضها كان مأخوذا من أمثال عربية مشهورة ، كالمثل العربي : " إن الجلاء سباء " ، ومن كلام المولدين : " والنقلة مثلة " .. والله الموفق

الفصل الثاني :

المجاز اللغوي وبلاغته في الرسالة الجدية لابن زيدون

الكلام في هذا الفصل يتناول مبحثين ؛ المبحث الأول : المجاز المرسل وبلاغته في الرسالة الجدية ، والمبحث الثاني : الاستعارة وبلاغتها في الرسالة الجدية ، وإنما قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين نظراً لتقسيم البيانيين المجاز اللغوي إلى قسمين ، أحدهما مرسل ، والآخر استعارة ، ويفرق بينهما من حيث العلاقة ، فإن كانت المشابهة فهو الاستعارة ، وإلا فهو المرسل .

والمجاز في الأصل مفعل من جاز المكان يجوزه إذا تعداه ، ونقل إلى الكلمة الجائزة أي : المتعدية مكانها الأصلي ، أو المجوز بها على معنى أنهم جاوزوا وعدّوها مكانها الأصلي ، وذكر الخطيب أن الظاهر أنه من قولهم : جعلت كذا مجازا إلى حاجتي ، أي طريقاً لها ، على أنّ معنى : جاز المكان : سلكه ، فإن المجاز طريق إلى تصور معناه .

المبحث الأول :

المجاز المرسل وبلاغته في الرسالة الجدية

عرفه البلاغيون بأنه الكلمة المستعملة في غير معناها الأصلي ، لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي ، وله علاقات كثيرة مرد تفصيلها إلى كتب البلاغة ، ولا يكاد يوجد في الكلام المنثور من رسالة ابن زيدون التي هي مجال بحثنا ما يمكن أن نعتبره شاهدا للمجاز المرسل إلا بعلاقتين من علاقاته فقط ، إحداهما الجزئية ، والأخرى علاقة المجاورة ، مع بعض التكلف في إجرائهما على هذه الشواهد ، أما الشاهد الأول من شواهد المرسل فهو في قول ابن زيدون مشيرا إلى قتل أبي لؤلؤة لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " ومزّقت الأديم الذي باركت يد الله عليه " والأديم هو الجلد ، والمقصود به هنا جلد البطن وما وراءه من الأمعاء ، فاكتفى بالجلد لأنه مجاور ل الأمعاء التي مزّقها أبو لؤلؤة فكانت السبب في قتل عمر رضي الله عنه .

وعلى هذا المعنى يكون قول ابن زيدون هذا مجازا مرسلا ، وعلاقته إما أن تكون الجزئية ، فيكون قد ذكر الجلد وهو جزء من البطن ، وقصد البطن كله بما فيه من أمعاء ، وهو ما أراده أبو لؤلؤة . لعنه الله . إذ كان قصده التمزيق الذي يؤدي إلى القتل ، أو تكون العلاقة فيه المجاورة ؛ بأن يكون قد ذكر الجلد وأراد ما جاوره من الأمعاء ، علي حد قول عنترة :

فشـــككت بـــالرمح الأصـــم ثيابـــه لـــيس الكـــريم علـــي القنـــا بمحـــرم

إذْ قصد ذكر الثياب وأراد الجسد إن قلنا إنه قصد بالثياب معناها الحقيقي المعروف علي أنه قد قيل إنه قصد بالثياب النفس ، وحينئذ فلا شاهد فيما نحن فيه ، والذي أميل إليه أن إجراء المجاز المرسل في قول ابن زيدون الذي معنا فيه نوع تكلف سواء قلنا بكون العلاقة فيه الجزئية أو المجاورة ، واحتمال الحقيقة فيه أقرب وأولي ، وله وجه من البلاغة ولاسيما انسجامه مع السياق في الرسالة ؛ بل ربما كان المقام مقتضيا له ؛ وذلك لأن ابن زيدون يعدد الجرائم التي هي أحرى باستحقاق فاعلها للعقاب عليها ، ومثلها تمزيق جلد بطن سيدنا عمر رضي الله عنه وهو من هو في علو قدره وارتفاع شأنه في صحبته للرسول صلى الله عليه وسلم وأنه الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والذي أيّد به الدين ، ورفع به لواء الإسلام والمسلمين ، ونزل القران الكريم موافقا له فيما اقترحه في كثير من الحوادث ، وهو بعد في ذلك الوقت أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، فتمزيق جلد بطنه ولو لم يؤد إلى القتل لكان من أعظم الجرائم التي يستحق فاعلها أشد العقاب ، ومن ثم يكون أحرى بأن يتبرأ ابن زيدون منها ، على أنه يمكن الجمع بين الحقيقة والمجاز ، علي ما ذهب إليه بعض البلاغيين في مثل هذا القول الذي معنا علي حد قول القائل : قطعت الشجرة وإنما القاطع لها الآلة التي قطعت بها ، فإن نظرنا الي الفعل كان الكلام مجازا ، وإن نظرنا إلى الآلة كان الكلام حقيقة كما أشار إلى ذلك الدسوقي [1] في حاشيته على مختصر السعد ، ومن ذلك قوله مشيرا إلى مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه : " وضحيت بالأشمط الذي عنوان السجود به " والمقصود بالأشمط : الوجه الذي اختلط بياض شعره بسواده ، فإن قلنا إنه قصد بقوله هذا التضحية بالوجه دون نظر إلى ما وراء ذلك من قصد قتل سيدنا عثمان

(1) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (25/1)

رضي الله عنه كان الكلام حقيقة ، ويرشح ذلك قوله " الذي عنوان السجود به " وإن قلنا إنه قصد بالوجه ذات سيدنا عثمان رضي الله عنه كان الكلام محمولا علي المجاز المرسل بعلاقة الجزئية ؛ إذ قد أطلق الوجه المفهوم من قوله " وضحيت بالأشمط " وأراد ذات سيدنا عثمان رضي الله عنه ، والتعبير بالوجه عن الذات مجاز شائع إذ هو أشرف شيء في البدن ، وبه يتميز ، ومن ذلك قولهم : جاء وجوه القوم ؛ أي : سادتهم ، والمتكلمون يفسرون الوجه بالذات في قوله تعالى : (**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**) [سورة الرحمن : 27] وقوله تعالى : (**كل شئ هالك إلا وجهه**) [سورة القصص : 88] فالوجه عندهم في الآيتين مفسر بالذات [1] ، وتعبير ابن زيدون بالأشمط الذي قصد به الوجه الذي اختلط بياض شعره بسواده سواء حملناه علي الحقيقة أو المجاز فيه إيماء إلى شرف المضحى به ، وإشارة إلى عظم الجريمة التي ارتكبها قاتلوا سيدنا عثمان رضي الله عنه ولاسيما أنه عنوان السجود لله عز وجل ، والخضوع له سبحانه وتعالي وهو بعد أشرف أعضاء الإنسان ، وبه يتميز عن غيره ، فلا جرم كان حريا بابن زيدون أن ينفي عن نفسه جريمة مثل هذه ، وأن من فعل مثلها كان مستحقا للعقوبة المساوية لذلك كما أشار إلى ذلك في سياق كلامه عند تعداد هذه الجرائم التي نفى عن نفسه أن يكون قد ارتكب واحدة منها ، وأرى أنه إلى هذا الحد قد انتهي ما يصلح أن يكون شاهدا للمجاز المرسل في الكلام المنثور من رسالة ابن زيدون والكلام الآن بحول الله تعالى في القسم الثاني من أقسام المجاز اللغوي وهو الاستعارة .

المبحث الثاني :

الاستعارة وبلاغتها في الرسالة الجدية

(1) ينظر حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد ، المسماه بتحفة المريد ، ص 106 ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان

يحسن بنا قبل إيراد شواهدها في رسالة ابن زيدون أن نقدم ما يكون كالتوطئة لهذا الفن البلاغي بغرض الإشارة إليه عند بيان استعارات ابن زيدون ، وإبراز مواطن الجمال فيها ، فأقول وبالله التوفيق : الاستعارة لغة: طلب العارية ، قال في اللسان : " واسْتَعار طلب العارِيّة واسْتَعارَ الشيءَ واسْتَعارَه منه طلب منه أَن يُعِيرَه إِيّاه " [1]

قال العباس بن الأحنف :

نــزف البكــاء دمــوع عينــك فاســتعر عينـــاً لغـــيرك دمعهـــا مـــدرار

مـــن ذا يعـــيرك عينـــه تبكـــي بهـــا أرأيـــت عينـــاً للبكـــاء تعـــار

قوله : " فاستعر عينا " أي اطلبها عارية تبكي بها ثم تردها ، ولكن الشاعر رجع فاستبعد ذلك ، وهذا المفهوم من قوله : " أرأيت عينا ... إلخ " [2]

هذا .. والاستعارة المجازية التي نتحدث عنها مأخوذة من الاستعارة الحقيقية ، ولقد لقب هذا النوع من المجاز بالاستعارة ؛ نظرا إلى ذلك لأن الشخص لا يستعير من شخص آخر رداءً يلبسه مثلا إلا إذا كانت بينهما صلة وثيقة تقتضي استعارة أحدهما من الآخر ، فكذلك لا تستعار الكلمة من المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة لمعني آخر إلا إذا كانت بين الكلمتين صلة ومناسبة .

وأما معني الاستعارة في اصطلاح البيانيين ؛ فإنهم يطلقون كلمة الاستعارة علي معنيين ؛ المعني الأول هو المعني الاسمي ، وتُعرّف الاستعارة على هذا المعنى بأنها اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي .

ثانيا : المعني المصدري ، وتُعرّف الاستعارة عليه بأنها : استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي .

---

(1) لسان العرب ، لابن منظور ، (3168/4) ، ط / دار المعارف

(2) ينظر : الطراز ، ليحي بن حمزة العلوي (198/1) بتصرف ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان

وبمراعاه هذا الإطلاق ، أعني إطلاقه علي المعنى المصدري ؛ يصح الاشتقاق من لفظ الاستعارة كما هو شأن كل مصدر ، بخلاف إطلاق لفظ الاستعارة علي نفس اللفظ المستعار ، فإنه لا يصح فيه الاشتقاق ؛ لأن المفعول لا يشتق منه إذ هو بمثابة الجوامد .[1]

هذا والاستعارة فن بلاغي رائع ، مقصوده الأول المبالغة في التشبيه ، كما وضح الشيخ عبد القاهر في استعارة الأسد للرجل الشجاع ، فيقول : " في قولنا : رأيت أسدا ، وأنت تعني رجلا شجاعا ومعلومٌ أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعُك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته، مما يعود إلى الجرأة " [2]

فتأمل قوله : (المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة) وعند ذلك تدرك أن علاقة المشابهة بين ما استعمل فيه وما وضع له في أصل اللغة يجعل للكلام حسناً وطلاوةً وبهاءً ، ولهذا قيل : ولا بد أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها ؛ لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها .

هذا وقد قسم البلاغيون الاستعارة أولا إلى : تصريحية ومكنية ، والتصريحية هي ما صرح فيها بلفظ المستعار منه ، والمكنية ما حذف فيها المستعار منه أي المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وفي تفصيلها خلاف بين البلاغيين [3] مرده إلى مطالعة كتب القوم ، وتتنوع الاستعارة التصريحية إلى أصلية وتبعية اتفاقا بين البلاغيين ، واختلفوا هل تقع الاستعارة التبعية في المكنية أو لا تقع فيها ، والمشهور وقوعها فيها [4] .

ما مر كان بيانا لبعض الملامح عن فن الاستعارة بإيجاز ؛ لأن أصحاب المعاني والبيان والبديع أطلقوا فيها أعنة أقلامهم ، وجالوا بها في ميادين البحوث ، وليس الغرض إلا أن نبين ما وقع من المحاسن في رسالة ابن زيدون النثرية التي أرسل بها إلى ابن جهور يستعطفه ويتوسل إليه أن يخلصه مما هو فيه ، ولهذا لا يسير الكلام في الاستعارة على ما هو عليه في الكتب البلاغية ، وإنما سنمضي من بدايتها للتعرف على ما فيها من استعارات

---

(1) مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربي ، المطبوع مع شروح التلخيص (30/4) ط / دار الكتب العلمية

(2) يُنظر : أسرار البلاغة ، ص 33

(3) ينظر : شروح التلخيص (118/4)

(4) حاشية الدسوقي على مختصر السعد (108/4)

حسب ترتيب ابن زيدون لنثره ، وأول ما يطالعنا من الاستعارة في هذه الرسالة ما قاله ابن زيدون مستعطفا لابن جهور بنوع من المدح عجيب تضمن استعارات لطيفة ، ودعاء ببقاء النعمة على الأمير حيث يقول : (ومن أبقاه الله ماضي حد العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة) [1] ومعنى هذا الكلام : أي الذي أبقاه الله وعزمه ماضي الحد وأمله واري الزند ، ونعمته ثابتة العهد ، قال الصفدي : " وهذه الجمل واقعة موقع الحال ، وفيها ثلاث استعارات " ولم يبين أنواعها ، وإنما أشار إلى فحواها بقوله : (وهي المضاء لحد العزم كأنه لا يعزم على شيء إلا أمضاه ، ونفذ فيه حده ، ووري زند الأمل كأنه لا يؤمل شيئا إلا وهو يرى نوره ، وثبات عهد النعمة ؛ أي لا تغير له ذمة ، بل هي محفوظة أبدا عليه) [2]

أقول أما نوع هذه الاستعارات التي ذكرها ، فإن في قول ابن زيدون : (ماضي حد العزم) استعارة بالكناية ، حيث شبه عزم الممدوح بالسيف ، وسكت عن المشبه به ، وأضمره في نفسه ، وأثبت للمشبه وهو العزم لازم أو رادف المشبه به ، وهذا اللازم هو قوله : (حد) وهو إنما يكون للسيف ، وهذا الإثبات يسمى عند البلاغيين استعارة تخييلية ، وهذه الاستعارة هي قرينة الاستعارة بالكناية ، وهذه الاستعارة أعني الاستعارة بالكناية استعارةٌ عجيبة ، فأنت ترى فيها المشبه به غائبا حاضرا ؛ فبينما تراه مسكوتا عنه ، فتعمل فكرك وتكدّ خاطرك في البحث عنه ، إذا بالمتكلم يرمز له برادف من روادفه ، أو بلازم من لوازمه ، فبذلك تهتدي إليه ، فكأنك تنال حاجتك بعد شيء من التعب للبحث عنها فتستريح بذلك نفسك ، ويطمئن إلى ما ناله قلبك ، وابن زيدون حين شبه عزم ممدوحه بالسيف بجامع المضاء والقوة ؛ فإنما يشير من طرف خفي إلى حث الممدوح على إطلاقه من سجنه وتخليصه مما هو فيه ، وليس هذا ببعيد على الأمير ، فإن عزمه قوي إذا ما وجهه إلى شيء أمضاه ، وتلك الاستعارة التي في قول ابن زيدون (ماضي حد العزم) من أقوى أنواع الاستعارة وأبلغها ؛ وذلك لأنه قد رشحها بما هو من ملائمات المستعار منه وهو قوله :(ماضي) إذ هو من ملائمات السيف فتكون الاستعارة هنا مرشحة ، والاستعارة المرشحة كما ذكر البلاغيون من أقوي الاستعارات ؛ إذ أنها تكاد تنسيك التشبيه كأنها بلغت في الادعاء حدا من شأنه أن يجحد معه التشبيه فيها ، وهكذا يقال

---

(1) واري : ورى الزند إذا خرجت ناره وقت الاقتداح ، والزند : المقدحة ، والعهد : الأمن واليمين والموثق والذمة والحفاظ ... ينظر : تمام المتون ، ص 38

(2) ينظر : المرجع السابق ، ص 38

في قوله (وارى زند الأمل) ففيه أيضا الاستعارة بالكناية ؛ حيث شبه أمل الأمير بالنار وسكت عنه مضمرا له في نفسه ، ورمز إليه بما هو من لوازمه أو خواصه ، وهو قوله (زند) إذ هو مقدح النار ، أو الآلة التي تقدح بها النار ، وأثبت ذلك اللازم للمشبه ، علي طريق الاستعارة المكنية ورشحها بقوله (واري) ؛ أي : مشبوب مشتعل دائما ، والمقصود من تلك الاستعارة مدحه بأنه لا يرجو رجاءً كاذباً ، ولا يأمل إلا في شي محقق ، لا يتمنى الأماني التي لا يأخذ في أسباب تحقيقها ، فكأنه لا يأمل في شي إلا وهو يرى نوره ، وذلك من ابن زيدون حث للأمير علي تفريج كربته وإنهاء محنته ، قد ساقه للأمير في ثوب مدح ؛ ليكون أنجح في نيل حاجته وأنجع في تحقيق طلبته ، وقوله (ثابت عهد النعمة) هو من قبيل الاستعارة بالكناية أيضا وهي في قوله (عهد النعمة) إن قلنا إن كلمة العهد هنا الذمة والميثاق علي ما هو متبادر إلى الذهن عند ذكرها ، على أن هذه الكلمة قد تطلق علي الزمان بما فيه من خير أو شر ، فيقال مثلا : قديم العهد بكذا أو مضى عهد فلان ، وعلى هذا الإطلاق الثاني لا يكون في قوله (عهد النعمة) استعارة ، إذ معنى كلامه حينئذ أنه دعا له أن يستمر زمن نعمته ، وأما على كون العهد بمعني الذمة والميثاق ففيه استعارة بالكناية كما سبق آنفا ، وتقريرها أن يقال : استعير الإنسان للنعمة ثم سُكت عنه علي مذهب جمهور البلاغيين[1]، أو أضمر في نفسه تشبيه النعمة بالإنسان علي مذهب الخطيب[2]، ورمز له بما هو من روادفه أو لوازمه وهو العهد إذ هو من لوازم الإنسان المستعار منه ، وانما أثبته للنعمة أعني المستعار له ههنا علي جهة الاستعارة التخييلية ، وهي قرينة الاستعارة المكنية ، وفي هذا مزيد استعطاف من ابن زيدون للأمير .

ثم يقول مخاطبا الأمير ابن جهور : " إن سلبتني . أعزك الله . لباس إنعامك وعطّلتني من حلي إيناسك وأظمأتني إلى برود إسعافك ونفضت بي كف حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك وسمع الأصم ثنائي عليك وأحس الجماد باستحمادي إليك .، فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ويقتل الدواء المستشفي به ويؤتى الحذر من مأمنه وتكون منية المتمني في أمنيته "

أما قوله (لباس إنعامك) فقد مضى أن هذا من قبيل التشبيه ، وأنه قد أضيف فيه المشبه به إلى المشبه ، ويجوز أن يكون من قبيل الاستعارة ؛ فيكون ابن زيدون قد شبه ما أحاط به من نعم الأمير عليه وكثرتها باللباس

---

(1) ينظر : شروح التلخيص (150/4) وينظر معه : حاشية الدسوقي

(2) المرجع ذاته

بجامع الإحاطة في كلٍ واستعارة اسم المشبه به للمشبه بعد حذفه على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية وهي تومئ إلى كثرة ما كان يتمتع به ابن زيدون من نعم الأمير عليه ، وفي ذلك ما لا يخفى من تذكيره بسابق عهده معه واعترافه بفضله ، وهذا يحرك نفسه إلى إجابة طلبته وإنقاذه من محنته ، وأن ما كان فيه من النعم قد أصبح ابن زيدون منه خاليا بسلب ابن جهور منه ذلك ، وأرى أن التشبيه في قوله (لباس إنعامك) أولى من الاستعارة ؛ لما تراه من ذكر طرفيه ؛ وهما : اللباس والإنعام ، ويبقي الكلام في قوله (سلبتني) فإن قلنا إن السلب إنما يكون للباس خاصة ؛ فحيئنذ يكون في السلب استعارة تصريحية تبعية جاء بها من أجل لفظ اللباس في قوله : (لباس إنعامك) ويكون في ذلك دليل واضح علي براعة ابن زيدون في اختيار الكلمات المناسبة للمقام المناسب ، وإن قلنا إن السلب إنما يكون لإزالة ما يملكه الإنسان عامة ، فلا مجال للاستعارة فيه ، بل فيه تحسر علي ما وقع لابن زيدون مما فعل الأمير به وشكوى منه إليه ، وعتاب منه عليه ، وهذا كثير بين المحبين ، ومشهور في رسائل الأدباء وكتابات النظراء فيما بينهم .

وأما قوله (وعطلتني من حلي إيناسك) فالحلي : هو ما تتحلى به المرأة من خاتم وسوار وقلادة وغير ذلك ، والإيناس هو الأنس بالأمير ولقائه ومجالسته وإغداق نعمه عليه ، وهذا الكلام كما تراه من قبيل تشبيه الأنس بالحلي ، قد أضيف فيه المشبه به إلى المشبه ، وقد اختار ابن زيدون ما يناسب إزالة ذلك الأنس عنه ، فعبر عن ذلك بكلمة (وعطلتني) والتعطيل خلو جيد المرأة من الزينة يقال امرأة عاطل ؛ أي : خالية من الزينة ، وتوضيح ذلك أنه لما شبه أنسه بالأمير بالحلي الذي تتحلي به المرأة فيكسبها نوعا من الجمال ولونا من النضرة والبهاء ، فتأنس به وتشعر بالإقبال عليها ، والرغبة فيها ، وهو من ناحية أخرى دليل علي ترفها وتنعمها ، وكذلك كان ابن زيدون في حال أنسه بابن جهور وشموله له بنعمه عليه مما أكسب ذلك ابن زيدون راحة نفس وهدوء بال واطمنان قلب ، وأكسب حياته جمالا وبهاء ونضارة ، ثم لما حدثت تلك الجفوه بينه وبين ابن جهور زال عنه ذلك الأنس وخلت حياته مما كان يتمتع به من السعادة والبهاء والراحة والاطمئنان ، لما كان الأمر كذلك ساغ لابن زيدون أن يأتي بالاستعارة الرائعة المناسبة للمقام في قوله (وعطلتني) فقد استعار التعطيل الذي هو خلو المرأة عن الزينة مما يترتب عليه من قلة بهائها ونضارتها والإقبال عليها بخلو حال ابن زيدون عن إنعام ابن جهور عليه والأنس بلقائه ، وما يترتب علي ذلك من الألم والوحشة والغربة استعارة تصريحية تبعية ، هي في غاية الجمال لأنها أنسب بالمقام ، فقد أكسبها تشبيه الأنس بالحلي في ما نحن فيه

من القوة والبلاغة التي لم تكن لتجدها دونها ، فكأنها رشحت هذا التشبيه للغرض الذي قصده ابن زيدون ؛ وهو إظهار الشكوى في مزيد من التحسر ممزوج بنوع من العتاب مبطن بشيء من الاستعطاف ، وكذلك يقال في قول ابن زيدون مخاطبا ابن جهور (برود إسعافك) وواضح أنه شبه إسعاف الأمير له ، وهو إنجاده له بإنقاذه من محنته وقضاء حاجته ؛ في الأساس وأسعفته بحاجته قضيتها له [1]،شبه إسعافه له بالشيء البارد ؛ الماءِ أو غيره ، مما تستلذه النفس وتحبه ، وتأنس به لإطفائه حرارتها كما هو معروف ، وذلك في الأمور المحسوسة ، فالماء البارد مثلا مع شده الاحتياج إليه يطفئ الغلة ، ويروي الظمأ ويبعث الحياة في الجسد ، فقد قال الله تعالى : (**وجعلنا من الماء كل شئ حي**) [سورة الأنبياء : 30] وكما أن هذا مشاهد في المحسوسات ، فإنه يقاس عليه ذلك في المعنويات ، فإذا احتاج الإنسان إلى أن ينقذه أحد من محنة ألمت به ، أو يعينه على رفع مصيبة نزلت به أو يقضي له حاجة اشتد احتياجه إليها ؛ فإن ذلك يكون مثلما ينزل الشيء البارد علي نفسه فينعشها ، وإذا افتقد الإنسان ذلك في المحسوسات عبر عن ذلك الافتقاد بالظمإ ، واذا استعمل الظمأ في المعنويات ؛ كان ذلك على طريق المجاز المفسر فيما نحن فيه بالاستعارة التصريحية التبعية ، وذلك في قول ابن زيدون (وأظمأتني) فقد استعار الإظماء لإبطاء ابن جهور في قضاء حاجة ابن زيدون له مع احتياجه إليها وتشوقه لقضائها ، ثم سرت الاستعارة من المصدر وهو الإظماء إلى الفعل (أظمأ) كما هو شان الاستعارة التبعية ، والجامع شدة الاحتياج إلى الشيء مع الإبطاء في تحصيله ، ولا يخفي عليك وجه مناسبة هذه الاستعارة للمقام ، وقد سبق التنبيه علي مثله ، وأيضا ما تحمله هذه الاستعارة مع التشبية من مزيد التحسر والشكوى مع العتاب والاستعطاف ، وحسن اختيار ابن زيدون للكلمات المناسبة في المقام المناسب ، ويبالغ ابن زيدون في بث شكواه إلى الأمير ابن جهور ، وإبراز ما يلقاه في ذلك من شدة الألم وعدم المبالاة به لعل ذلك يكون باعثا لابن جهور علي العطف عليه وتخليصه مما هو فيه ، وإعادته إلى سابق عهده معه ، فيترقي ابن زيدون في بيان ذلك إلى مرتب بعد مرتبة ، ويجد أن الإكثار من الاستعارات من أعظم ما يعاونه على ذلك الغرض ؛ إذ لها من الإقناع والتأثير والمبالغة في الادعاء والتصرف في ضروب المعاني ومعارض أنواع الألفاظ ما ليس لغيرها من فنون الكلام ، وإنك لتشعر بذلك الترقي في ضروبها إذا سمعت قوله مخاطبا الأمير ابن جهور : (ونفضت بي كف حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك) فأنت ترى أنه يبيّن أولا أن ابن

(1) أساس البلاغة للزمخشري ، ص 297 ، ط / دار صادر بيروت

جهور قد أخلاه من الأنس به ، وأبطأ عليه في قضاء حاجته ، هذا وإن كان يشعر بإهماله وعدم الاهتمام به ، إلا أنه لا يعني أنه تخلى عنه كل التخلي فلا يزال الأمل فيه معقود بالتفكير في أن يمن عليه بإعادته إلى سابق عهده معه ، ولكن ما ذكره ابن زيدون بعد ذلك وصبّه في قالب هاتين الاستعارتين اللتين تراهما في قوله : (ونفضت بي كف حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك) يشعرك بأن ابن جهور قد أهمله غاية الإهمال ، وبلغ في التخلي عنه كل مبلغ ، فهو لم يطرحه من كفه فقط ؛ بل نفض كفه منه كالنابذ لكل ما يذكره به ، فلم يعد له به رعاية ، ولم يشمله كما كان يفعل معه قبل ذلك بحفظ ولا عناية

والاستعارة هنا في قوله : " ونفضت بي كف حياطتك وغضضت عني طرف حمايتك " والنفض : الطرح ، والحياطة والإحاطة بالشئ وهو الاستيلاء علي جميع نواحيه ، قال الصفدي : فيما نحن فيه : " ... (يقول) يعني ابن زيدون : (وأعطشتني إلى برود إغاثتك لي ، وإنجادي وطرحتني من كف حوزك ، وقد استعار الظمأ وهو شده العطش إلى برود الإسعاف ، ونفض الكف عن الإحاطة ، والحوزة له ، وذلك في غاية الحسن) ... " [1]

وكلام الصفدي يشير إلى ما نبّهت عليه آنفا من تناسب الكلام بعضه مع البعض وترقي ابن زيدون في مراتب البيان توضيحا للغرض وتناسبا مع المقام كما يشير إلى الاستعارة ، وفي قوله : " نفضت بي كف حياطتك " ولكنه لم يبين نوعها وهي كما هو ظاهر استعارة بالكناية ؛ فقد استعار ابن زيدون الإنسان للحياطة ، أي : الحوزة والإحاطة ، ثم سكت عن المستعار منه (الإنسان) ورمز له بما هو من خواصه ؛ وهو الكف ، وإثبات الكف التي هي من خواص الإنسان للحياطة (المستعار له) استعارة تخييلية ، وهي قرينة الاستعارة المكنية وهذا التقرير علي مذهب جمهور البلاغيين غير السكاكي ؛ لأن له رأياً في تقرير الاستعارة بالكناية فيه نوع تكلف وتوضيحه مبسوط في كتب البلاغة ، ولا نطيل بذكره هنا ، وأما الخطيب القزويني فقال في إجراء الاستعارة المكنية في ما نحن فيه علي مذهبه ، أضمر في النفس تشبيه الحياطة بإنسان ، ودل عليه بما هو من خواصه ، وهو الكف فإثباته للمشبه (الحياطة) تخيل ، وهو قرينة هذه الاستعارة المكنية ، فليس الاستعارة المكنية عنده لفظا ، وكذلك قرينتها ، وإنما هي معني في النفس ، وهذا على خلاف رأي جمهور البلاغين والزمخشري

---

(1) ينظر : تمام المتون ، ص 40

والسكاكي أيضا ، وفي المقام أخذ ورد مرجعه إلى كتب البلاغة ، وكذلك يقال في قول ابن زيدون (وغضضت عني طرف حمايتك) فقد استعارة في النفس الإنسان للحماية أي العناية والرعاية ، وحذف المستعار منه وذكر ما هو من روادفه وهو (الطرف) وأثبته للمستعار له (الحماية) وهذا الإثبات استعارة تخييلية وهي قرينة هذه الاستعارة المكنية ، ومذهب الخطيب واضح مما سبق ، ولا يخفى عليك بعد ذلك أن هاتيين الاستعارتين قد بلغتا من القوة مبلغا عظيما وشأوا بعيدا في باب الادّعاء والمبالغة إذ قد رشحت الأولي بقوله (ونفضت) والنفض من ملائمات المستعار منه ، ورُشحت الثانية بقوله (وغضضت) والغض من ملائمات المستعار منه كذلك ، والترشيح يكاد يجحد معه التشبيه فتكون المبالغة فيه أوفى ، والادعاء فيه أقوي ، هذا .. وأرى أن احتمال التشبيه في قوله (كف حياطتك) بأن تشبه الحياطة بالكف بجامع القبض والإحاطة ، وفي قوله (طرف حمايتك) بأن تشبه الحماية بالعين بجامع العناية والرعاية في كلٍ وإن كان له وجه سائغ من المبالغة ومعنى الكلام إلا أن الاستعارة فيه أولى كما أشرت إلى وجه حسنها في ما سبق هذا وبالغ ابن زيدون في تعداد ما فعله به ابن جهور من سلبه لباس نعمته عليه وتعطيله من حلي أنسه به و إعطاشه إلى إسعافه وإنجاده وطرحه من حوزته وعنايته ورعايته مع أنه كان يكفيه أن يذكر واحدة من هذه الأشياء وتكون كافية في إظهار ما هو فيه من الألم بما وقع له وبث ما يعانيه من الشكوى إلا أنه إنما فعل ذلك ليزيل عن نفسه ما أسقمها من ألم ويخفف عن قلبه ما أهمه من الأثقال وليكون ذلك من المبالغة في استجلاب عطف الأمير عليه وليجاري غيره في هذا الباب فقد جرت عادة الأدباء والشعراء بذكر تعداد ما يلاقونه من الألم وما يقاسونه من الشدائد والمصائب لا سيما إن كان ذلك في معرض الشكوى والعتاب أو الفخر بأنفسهم ، قال الصفدي (وقد أخذ ابن زيدون يعدد على ابن جهور ما عامله به من الجفوة وكان يكفيه أن يقول إن سلبتني لباس إنعامك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي ذلك ولكنه في المقام حقه من تعداد ما وجده منه من سلبه لباس إنعامه وتعطيله من حلي إيناسه وإظمائه إلى برود إسعافه ونفض كف الحياطة وغض طرف الحماية ولا شك أن تعداد الظلامات أبلغ وأجلب للرحمة وأدل على التوجع وهذا كقول الشاعر :

قــالَ لي : كيْــفَ أَنْــتَ قُلْــتُ : عَليــلٌ   سَــــهَرٌ دائـــــمٌ وحُــــزْنٌ طَوِيْــــلُ

وكقول الحماسي :

سـجن وقيـد واشـتياق وغربـة ونـأى حبيـب إن ذا لعظـيم

وإن امـرؤ تبقـى مواثيـق عهـده علـى مثـل مـا لاقيتـه لكـريم

غير ذلك مما استشهد به الصفدي من أشعار وكلام منثور، أما قول ابن زيدون بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك فهو يتضمن مبالغة عظيمة لبس فيها ابن زيدون ثوب المتنبي فهو صاحبها ومنشؤها وأنت ترى ذلك في قوله :

أنَـا الـذي نَظَـرَ الأعْمَـى إلى أدَبي وَأسْمَعَـتْ كَلِمـاتي مَـنْ بـهِ صَـمَمُ

فمبالغة المتنبي في المصراع الأول من البيت تتمثل في موضعين أحدهما جعله للأعمى نظراً إن قصد به نظر العين الباصرة المفهوم من تعديته (نظر) بحرف الجر (إلى) إذ من المعروف لغة أن نظر إن تعدت إلى المنظور إليه بإلى كان المقصود به النظر بالعين يقال نظرت إلى الثوب وإلى السماء ونحو ذلك وقد يستعمل مجازا في الأمور المعنوية فيقال نظرا إلى حاجتك وإلى المسألة بمعنى أنه جعلها من باله واهتم بها كما هو المتبادر إلى الذهن والذي تقتضيه المبالغة التي قصدها المتنبي إذ غرضه أن أدبه قد بلغ من الشيوع والوضوح حدا جعل الأعمى الذي لا ينظر يهتم به وينظر إليه أو ما في معنى ذلك وهو أمر معهود في مبالغات المتنبي ومنها ما هو مقبول ومنها ما هو محل نقد عند النقاد وثاني الأمرين تجسيده الأدب المعنوي في ثوب حسي عن طريق الاستعارة وهذه التي نتحدث عن نظيرتها عند ابن زيدون إذ قد حاكاه بذلك محاكاة واضحة فاقتبس كلامه وغيّر منه ما يتناسب مع غرضه ويلزمه في المبالغة ما لزم المتنبي ،فإن قلنا بقبول مبالغة المتنبي قبلنا مبالغة ابن زيدون وإلا فلا ، والاستعارة التي أشرت إليها هي في قول ابن زيدون بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك حيث جسد الأمل المعنوي فألبسه ثوب شئ محسوس يمكن أن يرى بالعين ورمز إلى المستعار منه وهو الشئ المرئي بالعين بقوله نظر وأثبته للمستعار له وإن شئت فقل أوقعه على المستعار له على طريق الاستعارة التخييلية التي هي قرينة المكنية وإجراء الاستعارة التصريحية التبعية التحقيقية في قوله نظر علي مذهب الزمخشري إذ في مذهبه جواز الاستعارة التحقيقية في رادف المشبه به المثبت للمشبه على وجه التخييل كما يفهم من تفسيره لقوله تعالى

(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) الآية حيث أجاز في النقض الذي هو رادف الحبل المستعار للعهد استعارة تحقيقية[1] تبعية ، أقول إجراء الاستعارة التصريحية التبعية في قول ابن زيدون نظر بأن يستعار النظر هاهنا للاهتمام بتأميل ابن زيدون في ابن جهور وشيوعه مما يفسد على ابن زيدون غرض المبالغة العظيمة التي أراد بها محاكاة المتنبي على أنه يجعل مبالغته مقبولة.

ومن المبالغة الزائدة قول ابن زيدون (وأحس الجماد بإسنادي إليك) وقد جاء في بعض النسخ (وقد أحس الجماد باستحمادي لك) أما على قوله وأحس الجماد بإسنادي إليك فالإحساس هو الإدراك بإحدى الحواس الخمس المعروفة.

والجماد كل ما لا إدراك له مثل الحجر والتراب ونحو ذلك ، والجماد الأرض التي لم يصبها مطر والإسناد عند علماء الحديث رفع الحديث إلى قائله وفي قوله هذا استعارة بالكناية أيضا حيث شبه الجماد بحيوان يدرك ويحس ثم استعاره وسكت عنه في اللفظ وأثبت له ما هو من خواص المستعار منه (الحيوان) وهو الإحساس على طريق الاستعارة التخييلية وهي قرينة الاستعارة المكنية وكأنه يقول : بلغ من كلامي عنك وثنائي عليك وإسنادي كل حديث يدل على المدح والثناء إليك أن الأصم الذي لا يسمع كأنما صار له سمع فاستمع إلى ذلك الثناء عليك والجماد الذي لا إحساس له ولا إدراك قد أحس بإسنادي كل حديث الذي فيه مدح وحمد إليك ، ويقال أيضا مثل هذا على ما جاء في بعض النسخ الأخرى وقد أحس الجماد باستحمادي إليك والاستحماد طلب الحمد فالسين والتاء فيه للطلب ، وكأن المعنى حينئذ وأحس الجماد بكثرة إلحاحي في طلب حمدك وهذه مبالغة عظيمة كما هو واضح وفيها تذكير لابن جهور بأن ابن زيدون قد قدر ما كان بينه وبينه من سابق الود وحسن المعاشرة واعترافه بمعروفه وملازمة شكره عليه والذي يكون هذا حاله لا ينبغي أن يهمل فيترك فريسة للألم بل ينبغي أن يسارع في إنقاذه ففيه إيماء كما ترى إلى عتاب خفي من ابن زيدون لابن جهور ، قال الصفدي : (يقول) يعنى ابن زيدون فعلت بي كل ذلك بعد ما نظر الأعمى إلى تأميلي لك وسمع الأصم وهو الذي لا سمع له ثنائي الذي كنت أثنيه عليك وأحس الجماد الذي لا إدراك له ولا إحساس برفع

(1) ينظر : تفسير الكشاف (58/1) ط / دار المعرفة . بيروت

الحديث إليك وهذه غاية في المبالغة وطبقة عليا في البلاغة وهو أن يثني عليه إلى أن يسمعه الأصم ويسند إليه حتى يحس الجماد بذلك .[1]

وأما قول ابن زيدون (فلا غرو قد يغص بالماء شاربه) فإن الفاء من قوله فلا غرو واقعة في جواب الشرط وهو قوله إن سلبتني ، والغرو العجب ، والمعنى فلا عجب من هذا الذي فعلته بي مما يخالف عادتك وإحسانك ومستمر إنعامك فإن الشئ قد يخرج عن عادته ويخالف ما طبع عليه ، والمثل على ذلك ما سيذكره من مخالفة تلك الأشياء لما هو مرجو منها فإن الماء الذي عادته السهولة والسياغة في الحلق والذي يقصد ويرجى أن تزال به الغصص قد يخالف عادته هذه فيغصّ به شاربه والدواء الذي من عادته أن يقصد ويرجى ليكون سببا للشفاء من المرض ورفع الأسقام والعلل قد يخالف تلك العادة فيكون سببا للقتل وأن ما يلجأ إليه الخائف الحذر ليأمن فيه غالبا قد تأتيه منه الآفة ويناله منه ما لم يكن يتوقع ، وإذا كان هذا معنى ما أراده ابن زيدون من كلامه الذي نحن فيه فيحتمل أن يكون في قوله قد يغص بالماء شاربه استعارة تصريحية تمثيلية ويكون هذا الاحتمال إن قلنا إن هذا الكلام قد جرى مجرى المثل ،وتقرير هذه الاستعارة أن يقال شبه حال ابن زيدون مع ابن جهور وأن العادة المستمرة بينهما الصفاء والود ودوام الإحسان من ابن جهور على ابن زيدون ودوام شكر ابن زيدون له والثناء عليه ونسبة كل حديث حسن إليه حتى ظن ابن زيدون أن هذه العادة لن تنقطع وهذا الصفاء لن يكدر ولكن حدث بينهما ما حدث من تلك الجفوة وذلك الكدر ، شبهت تلك الصورة وهذه الحال بحال الماء يكون من طبعه سهولة الجريان في الحلق والسلاسة في السياغة حتى يظن الظان أن تلك العادة لا تخالف ولن تنقطع ولكن يحدث خلاف ما ظنه من حصول الغصة به وصعوبة جريانه فاستعيرت تلك الصورة الدالة على المشبه به للمشبه على طريقة الاستعارة التصريحية التمثيلية ، والجامع بين الصورتين الهيئة الحاصلة من الشئ يعتاد منه شئ ما فيخالف تلك العادة ويحدث منه خلاف ما يتوقع ، ويمكن أن يقال مثل ذلك في قوله (ويقتل الدواء المستشفى به ويؤتي الحذر من مأمنه) وكلها تجري الاستعارة فيه على حسب معناه وفائدة هذه الاستعارة الإشارة إلى أن ابن زيدون يلتمس العذر لابن جهور فيما أوقعه به وأنه لن يجعل ذلك سبباً لعتابه ولومه إذا ما أنقذه من محنته وأزال الجفوة التي بينه وبينه فإن الود بينهما ما زال قائما والصفاء ما زال مستمرا ،وليت شعري إن هذا استعطاف بين ودليل واضح على حكمة ابن زيدون ورجاحة عقله وحسن

---

(1) ينظر : تمام المتون ، ص 44

سياسته في تدبير الأمور ويقول ابن زيدون (ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سحابه أو تأخر غير ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها وأثقل السحاب مشيا أحفلها وأنفع الحيا ما وافق جدباً وألذ الشراب
ما أصاب غليلاً ، له الحمد على اهتباله ولا عتب عليه في إغفاله فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سرن ألوف)

أقول هذا الكلام من ابن زيدون مبالغة في الاعتذار عما فعله ابن جهور به وإخبار له بأن ما حدث له منه لن يكون له تأثير على ما كان من صفاء وود بينه وبينه ، وفي هذا حث لابن جهور على إنقاذه من محنته ومزيد في استعطافه على تعجيل ذلك وانظر إلى حسن الأدب من ابن زيدون في إخباره عنه بأنه سيده في قوله ولن يريبنى من سيدي فإنه وصفه بأنه سيده ،وقوله أو تأخر غير ضنين غناؤه فقوله غير ضنين احتراس في غاية الحسن قصد به أن ابن جهور أجلّ من أن يضن بفعل الخير على من كانوا أصفياءه وأحبته ، وفيه تسلية لابن زيدون بأن صاحبه لن يهمله وأن تأخره عن تفريج كربته إنما هو لحكمة أو مصلحة وإن خفي عن ابن زيدون سببها، هذا وشاهد الاستعارة في قوله (ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سحابه) وفي نسخة أخرى إن أبطأ سيبه ، أما السحاب فمعروف وأما السيب فهو مجرى الماء قال الزمخشري في أساس البلاغة ساب الماء يسيب سيبا وهذا سيب الماء المجري.

فأما قول ابن زيدون أن أبطأ سحابه ففيه استعارة تصريحية أصلية، حيث شبه عطاء ابن جهور وكرمه بالسحاب ثم حذف المستعار له وهو العطاء أو الكرم وصرح بالمستعار منه وهو السحاب على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية بجامع المبالغة في الكرم وكثرة العطاء في كلٍ ، واستعارة السحاب لكرم الممدوحين أمر ذائع عند الأدباء والشعراء وشواهد ذلك أكثر من أن تحصى ، وأما على رواية أن أبطأ سيبه ففيه كذلك استعارة تصريحية أصلية يقال فيها مثل ما قيل في استعارة السحاب للعطاء ، والمقصود من استعارة السحاب للكرم ؛ التشبيه بانهمار الماء من السحاب بقصد المبلاغة في الكرم والمدح بكثرة العطاء ، وأراد ابن زيدون رحمه الله أن يستدل على إقامة العذر في تأخر ابن جهور عن النظر في شأنه بأشياء شبه مسلمة وكأنها جارية مجرى الأمثال الشائعة حتى لا يكون فيها شيء من المماراة فقال فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها وأثقل السحاب مشيا أحفله .....الخ .

وأنت ترى أن الحكمة لن تفارق ابن زيدون في استدرار عطف صاحبه وبعث نفسه على إنقاذه من محنته واستدلاله بالمسلمات على الأمور التي قد يكون فيها شك وعدم تسليم لهذا ماله في نفوس سامعيه كما هو واضح.

يقول ابن زيدون مخاطبا ابن جهور : حنانيك، قد بلغ السيل الزبى ونالني ما حسبي به وكفى ، أقول وهكذا يظهر استعطاف ابن زيدون لابن جهور مصرحا به فإن محنته قد جاوزت حدها وعقوبته على ذنب لم يعترف به قد زادت على مداها وأصبح غير قادر على كتمان ما في نفسه من الشكوى وما يكنى عنه من طلب المعونة واستدرار الرحمة به والشفقة عليه ، ويظهر ذلك واضحا في قوله حنانيك أي رحمة منك بعد رحمة ، فالعرب تقول ذلك حين تبالغ في طلب الرحمة عند وقوع أمر لا يكاد يحتمل كما قال طرفة ابن العبد :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وغالبا ما تستعمل العرب هذه الكلمة بلفظ التثنية ، ومعناه : حنان منك بعد حنان ، وشاهدنا في الاستعارة في قول ابن زيدون قد بلغ السيل الزبى [1] جمع زبيه وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده وأصلها الرابية لا يعلوها الماء فإذا بلغها السيل كان جارفا مجحفا ، وقوله هذا كأنه تعليل لنفاد صبره على تلك المحنة حتى دفعه هذا للتصريح بطلب الرحمة ، وذلك لأن قوله بلغ السيل الزبى مثلٌ يضرب لمجاوزة الأمر الحد ، وكأنه يقول إن هذه المحنة التي تعرضت لها قد أفرغت صبري وجاوزت حدها ووصلت إلى نهايتها ، وهنا تلوح الاستعارة التمثيلية لتشير إلى كل هذا فيقال في إجرائها شبه حال ابن زيدون في محنته التي عرّضه لها ابن جهور في كونها قد جاوزت حدها وبلغت أقصى مداها حتى أنه قد نفد صبره عليها وهو غير قادرٍ على تحملها بحال السيل يزيد فيجاوز حده ويعلو على الرابية المرتفعة فيكون جارفا مجحفا والجامع مجاوزة الحد في كلٍ، ويعبر عن ذلك ابن زيدون بعد هذا الكلام بقوله (ونالني ما حسبي به وكفى) ،هذا ويمكن اعتبار قوله بلغ السيل الزبى من قبيل الكناية عن صفة هي مجاوزة الأمر حده واشتداده حتى خالف العادة وخرج عن المألوف ولكن الاستعارة التمثيلية فيما أراه أقرب والله أعلم

ثم يقول ابن زيدون :

---

(1) ينظر : تمام المتون ، ص 107

(والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأسا منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء بأزمتي ، وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ، ولم ضاقت مذاهبي وأكدت مطالبي ، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل الغنيمة بالإياب ، وإني غلبنى المغلب وفخر على العاجز الضعيف ولطمتني غير ذات سوار)

يريد أن يقول أقسم بالله أني مقيم على النصح لك ثابت على الميل إليك ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهبا ولم يستفزني اليأس منك للتلاعب في يدي الأهواء فإن ثقتي بك وحسن ظني فيك قد ضمنت لي أن أطرد اليأس بالرجاء في عفوك، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعي بمكان فإنه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول استجلابا للرحمة وطلبا للعفو .

وأما قول ابن زيدون (فلم عبث الجفاء في أزمتي وعاث العقوق في مواتي) ... إلى آخر القطعة ؛ فإنه يستفهم فيه عن سبب إفساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل الرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضي من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالما واجترأ عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابا وظلمه من لم يك له كفؤ، وهذه حال تدل على ما صار إليه أمر ابن زيدون من شدة الضعف والوهن بسبب تلك المحنة التي عرضه لها ابن جهور واستفهامه عن ذلك فيه نوع من العتاب واستنكار لتلك الوشاية التي بسببها فعل به ابن جهور ما فعل.

هذا واستعارته الإنسان الذي يعبث بأزمته وعهوده وحرمه وسكوته عنه وإضماره في نفسه وإثباته للمستعار له (الجفاء) استعارة تخييلية وهي قرينة لتلك الاستعارة بالكناية التي أشرت إليها ، وكذلك استعارته الإنسان الجاحد للفضل (للعقوق) المفسد لكل بر والقاطع لكل ود وسكوته عنه وإضماره في نفسه كما هو شأن الاستعارة بالكناية واستدلاله على المستعار منه بما هو من خواصه وذكر ذلك في قوله (عاث) بمعنى أفسد ،وإثباته ذلك للمستعار له (العقوق) استعارة تخييلية وهي قرينة المكنية ، كل هذا أدل دليل على ما تقدم مما صارت إليه حال ابن زيدون بسبب تخلي ابن جهور عنه وعدم المبادرة إلى إنقاذه من محنته ، قال صاحب كتاب إظهار المكنون (وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال أولها الرضا من المركب بالتعليق

يضرب في القناعة بإدراك بعض الحاجة ، وثانيها رضيت من الغنيمة بالإياب يضرب في القناعة بالسلامة والأول مأخوذ من قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله أيضا

فإنه لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وخامسها (لو ذات سوار لطمتني) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة ،والثلاثة تضرب عند العجز والذلة [1].

أقول وإذا كانت عبارات ابن زيدون هذه قد تضمنت هذه الأمثال الشائعة وكان من المعلوم أن المثل إذا فشى استعمل فيما يشبه مضربه مورده أي تشبيه الحالة الجديدة التي ضرب فيها بالحالة الشائعة التي ورد ذلك المثل فيها ، ومن ثم أورد الخطيب الكلام عنه في أثناء كلامه عن المجاز المركب والاستعارة التمثيلية وإذا كان الأمر كذلك فكلام ابن زيدون في هذه الامثال الخمسة المذكورة في هذه القطعة من رسالته من قبيل الاستعارة التمثيلية فيكون قد شبه حالته التي هو فيها من السجن والغربة والضعف وعدم قدرته على دفع ما يراد به بحال من وردت في شأنه هذه الأمثال ، أي بحال الذي قنع القليل فرضى من المركب بالتعليق والغنيمة بالرجوع سالما واجترأ عليه كل ضعيف عاجز لما رأى منه تلك الحالة من الضعف وغلبه من كان له غالبا ولطمته من النساء الجارية ذات الاستكانة والضعف جرأة عليه واحتقاراً لشأنه، وكل هذه أمثال تضرب لمن بلغ الغاية في العجز والضعف ، وهذا من ابن زيدون إما أن يكون قاله استعطافا لابن جهور ، أو تحسرا على حاله الذي تبدل من السعة إلى الضيق ومن القوة إلى الضعف ومن كونه ذا شأن وسلطان وعزة ومنعة إلى حال صار فيه لا يؤبه له ولا ينظر في شانه ولا يعتز بجاه ولا سلطان فقد سلب منه كل هذا كما أنك ترى في هذا دليلا واضحا على سعة إطلاعه على آداب العرب ولغتها واستعماله الكلام المناسب في المقام المناسب، واستفهامه عن هذه الحال التي صار إليها والذي بدأه بقوله (فلما عبث الجفاء بأذمتي) إلى آخره فيه إيماء إلى تعجب ابن زيدون مما

(1) ينظر : إظهار المكنون في شرح رسالة ابن زيدون ، لمصطفى عنان ، ص 26

فعل به وصار إليه من غير إقرار منه بذنب جناه وجريرة اقترفها،وكان في هذا الاستفهام لون من العتاب الموجه إلى ابن جهور لما فعله به،ثم يقول ابن زيدون (ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس وتدركني ولما أمزق ، أم كيف لا تضطرم جوانح الأكفاء حسداً لي على الخصوص بك وتنقطع أنفاس النظراء منافسة لي على الكرامة فيك وقد زانني اسم خدمتك وزهاني وسم نعمتك وأبليت البلاء الجميل في سماطك وقمت المقام المحمود على بساطك).

أقول هذه القطعة من الرسالة قد بدأها ابن زيدون بقوله (مالك لا تمنع من قبل أن أفترس) هو استفهام قصد به الإغراء وحس ابن جهور على إنجاده وإسعافه وإخراجه من تلك الحالة التي كادت تهلكه فيها الهموم والسجن وشماتة الوشاة فيه وتبدل نعمته إلى تلك النعمة التي أفقدته كل ما كان يتمتع به من جاه وسلطان وأنس ،وفي هذا الاستفهام إشارة إلى لوم وعتاب لابن جهور على التواني في إنقاذه وإنجاده من تلك المحنة خاصة وأن ابن زيدون لا يعترف بما نسب إليه من ذنب ولا يقر بما ألصق به من تهمة وإنما هي في نظره وشاية واشٍ وسعاة ساع قصد بها الإفساد بينه وبين صاحبه ، وترى هذا واضحا في قوله (مالك لم تمنع) إلى آخره ،واستعار ابن زيدون الافتراس الذي يكون من السبع عند تمكنه من فريسته لإهلاك الهموم له على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

و قد كان في هذا موفقا في تصوير الحالة التي هو فيها إذ أن السبع إذا تمكن من فريسته و أنشب فيها مخالبه فإنه لا يمنعه مانع من قتلها و إهلاكها دون مراعاة لشئ فكأن الهموم قد تمالأت علي ابن زيدون فهي لا تكاد ترحمه أو تتركه حتى تهلكه و تفنيه كما يفعل السبع بفريسته، ويمكن أن تكون هذه الاستعارة من قبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية بأن تشبه حال ابن زيدون من السجن والوحشة والغربة وما يقاسي في هذه الحال من الآلام والأحزان التي تكاد تهلكه بحال سبع تمكن من فريسته فأعمل فيها مخالبه و أنيابه تمهيدا لافتراسها و إهلاكها ، وكل هذا من ابن زيدون إيقاظ لمشاعر ابن جهور علي العطف عليه و بعث لنفسه علي إنقاذه لا سيما و قد كان بينهما ما لا ينكر من جميل الصحبة وحسن العهد و المودة و الألفة و في قوله(أم كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء حسدا لي علي الخصوص بك وتنقطع أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك) ما يشير إلي ذلك , هذا وقد استعار ابن زيدون التضرم الذي هو في الأصل شدة اشتعال النار لشدة الغيظ الكائن في قلوب الأكفاء والنظراء الناشئ عن الحسد لابن زيدون بسبب ماله من حظوة ومكانة عالية عند ابن جهور، فكان

ذلك باعثا لهم علي الوشاية به و السعي للإفساد بينه و بين ابن جهور لكي تحدث بينهما تلك الجفوة و تزول تلك المنزلة و يفقد تلك المكانة التي كانت له عند ابن جهور و التي كان ابن زيدون بسببها في رغد من العيش و أنس الجاه و السلطان فتتبدل عنه تلك النعمة إلي نقمة السجن و الغربة و الوحشة قاصدين بذلك إطفاء نار الغيظ في قلوبهم، و هذه الاستعارة كما لا يخفي استعارة تبعية و لعل ابن زيدون استمد معناها من قول الشاعر :

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

و تشبيه شدة الغيظ الناشئ عن الحسد باشتعال النار غير عزيز في كلام العرب شعرا و نثرا و كأن ابن زيدون قد استوحي معاني ما قاله في هذا الكلام من قول الشاعر:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

أن الذي وجدوني في صدورهم لا أرتقي صدر منهم و لا أرد

ثم يقول ابن[1]زيدون (وهل لبس الصباح إلا بردا طرزته بفضائلك و تقلدت الجوزاء إلا عقدا فصلته بمآثرك و استملي الربيع إلا ثناء ملأته من محاسنك و بث المسك إلا حديثا أذعته من محامدك ما يوم حليمة بسر و إن كنت لا أكسك سليبا و لا حليتك عطلا و لا وسمتك غفلا بل وجدت أجرا وجصا فبنيت و مكان القول ذا سعة فقلت).

في هذه القطعة من الرسالة تري ابن زيدون لم ينسي أنه شاعر يستهويه مبالغة الشعراء أثناء كتابته لهذه الرسالة المنثورة إذ أن الشعراء يزيدون في المبالغة في مدحهم لمن يمدحونه إلي حد لا يكاد يكون مقبولا في غير الشعر

(1) انظر كتاب إظهار المكنون ص63

فتقبل منهم مبالغتهم و إن بلغوا حدا فيها لا يصدق و منطق لا يكاد يطرد و من ثم قيل أعذب الشعر أكذبه ،وها أنت تري ابن زيدون ها هنا قد بالغ الغاية في الثناء علي ممدوحه و جاوز الحد في إدعائه له من الأوصاف ما لا تعرفه الحقيقة ولا يسع قبوله إلا المجاز، أفلا تراه قد ادعا أن الصباح ما أحاطت به الأنوار إلا بسبب أنه لبس بردا طرزه ابن زيدون بفضائل ممدوحه و أن الجوزاء أحد البروج الاثني عشر و هي عدة كواكب و من صورته ثلاثة كواكب صفت علي قدر واحد في الهيئة و البعد يسمي منطقة الجوزاء ما كانت لها تلك الصورة الباهرة و ذلك الشكل الذي هو علي صورة العقد المنظم المنسق الجميل إلا حين فصل و نظم بمكارم ذلك الممدوح و مآثره الحسنة الشائعة في الناس.

و أن الربيع قد أملى عليه أحاديث الثناء علي الممدوح فامتلأت به محاسنه فانتشرت كما ينتشر حسنه في أعين الناظرين.

و أن المسك ما طاب أريجه وذكت رائحته وحبب إلي الناس إلا بكونه ممزوجا بمحامد ذلك الممدوح،ولا يخفي عليك بعد ذلك هذه المبالغة العجيبة التي لا يتسع لها نطاق الحقيقة و إنما يسعها قسيمها وهو المجاز كما أشرت إلي ذلك آنفا. ولما كانت الاستعارة أمد ميدانا و أشد افتنانا وأكثر جريانا وأوسع سعة وأبعد غورا لذلك كان رحابها جديرا بأن يتسع لهذه المبالغة ،ولما كانت المبالغة في الاستعارة المكنية أقوي من غيرها من أنواع الاستعارات لكونها كالتشبيه المقلوب الذي يدعا فيه أن الفرع قد فاق أصله ومن ثم كان مبنيا علي ادعاء أن الفرع فيه هو الأصل الذي يقاس عليه غيره علي عكس ما هو مألوف في التشبيه و الاستعارة.

نقل البناني عن الأطول في الاستعارة بالكناية قوله (ومن غرائب السوانح و عجائب اللوائح أن الاستعارة في الكناية فيما بين الاستعارات استعارة مقلوبة مبنية علي التشبيه المقلوب لكمال المبالغة في التشبيه فهو أبلغ من المصرحة فكما أن قولنا : السبع كالمنية تشبيه مقلوب يعود الغرض منه إلى المشبه ؛ كذلك أنشبت المنية أظفارها استعارة مقلوبة استعير بعد تشبيه المنية للسبع الادعائي و أريد بالمنية معناه بعد جعلها سبعا تنبيها علي أن المنية بلغت في الاغتيال مرتبة ينبغي أن يستعير السبع (1) عنها . أقول و هذا التخريج لما قاله و إن أجراه علي مذهب السكاكي في الاستعارة بالكناية أعني بادعائه للمنية صورة وهمية تنسب إليها الأظفار إلا أنه

(1) ينظر تجريد البناني علي مختصر السعد (276/2 ، 277)

لا مانع من الاستئناس به في كون الاستعارة المكنية أبلغ من المصرحة و إنما أشرت إلي ذلك لكون ما نحن فيه من كلام ابن زيدون قد استعانه بالاستعارة بالكناية لتوضيح مقصوده و بيان غرضه من المبالغة في الثناء علي ممدوحه فهو قد ألبس الصباح بردا مطرزا بفضائل الممدوح فاستعار الإنسان للصباح و سكت عنه و رمز له بما هو من خواصه و هو كلمة لبس و أثبتها للصباح علي طريق الاستعارة التخييلية التي هي قرينة الاستعارة المكنية ورشح هذه الاستعارة بقول طرزته ليفيد تقويتها و يدل علي المبالغة في تناسي التشبيه حتى يكاد السامع أو القارئ أن ينساه من قوة هذا الادعاء و كذلك صور الجوزاء مع الكواكب المحيطة بها بصورة المرأة التي علقت علي جيدها عقد منسق منظم و رمز إلي المستعار منه بقوله (علقت) علي طريق الاستعارة التخييلية فتكون بذلك قرينة الاستعارة بالكناية المرشحة بقوله (عقدا) و فصلته لكن هذا العقد مفصل بمآثر الممدوح ليدخلك في ضرب من المبالغة عجيب و كذلك استعار الإنسان للربيع لكي تملي عليه أحاديث الثناء علي الممدوح الناطقة بمحاسنه فتشيع بين الناس فيستشعرون جمالها و يرون حسنها كما تنتشر محاسن الربيع في كل بقاع الدنيا و كذلك استعار الإنسان للمسك و رمز له بشئ من لوازمه و هو قوله (بث) و إثباتها للمسك استعارة تخييلية و هي قرينة هذه الاستعارة المكنية كما هو واضح و فيه إيماء إلي المبالغة في حسن سيرة الممدوح و طيب خصاله و كثرة محامده فما من أحد من الناس إلا استطابها و ابن زيدون قادر علي الإقناع يأبي إلا أن يكون ما ينشره من فضائل الممدوح و مآثره و محامده حقائق مسلمة حتى و إن بناه علي الادعاء و المبالغة و تري ذلك واضحا في أسلوب القصر الذي يدل علي التأكيد و التقرير و كذلك سوق هذا الكلام في أسلوب الاستفهام التقريري (و هل لبس الصباح إلا بردا و تقلدت الجوزاء إلا عقدا و استملي الربيع إلا ثناءً و بث المسك إلا حديثا) فهو لا يسوق ذلك الكلام في صورة خبر ليكون محتمل الصدق و الكذب و محل للمجادلة و المماراة فيه و لكن يسوقه في صورة الاستفهام التقريري كأنه ما من أحد تعرض عليه خصال ذلك الممدوح إلا أقرها و سلم بها و هذا النوع من المبالغة في الثناء و المدح و التشبيه بالصباح و الربيع و المسك قد درج عليه الأدباء و الشعراء و للعلامة الصفدي كلام بديع في ذلك أثناء شرحه لعبارات ابن زيدون هذه بين فيه وجه حسن هذه الاستعارات حيث يقول (قد جرت العادة بين البلغاء و فرسان البيان و أرباب النثر و النظم أن يستعيروا للثناء و هو شئ يدرك بالسمع أشياء تدرك بحاستي البصر و الشم فيقولون ثناء كأنه المسك

أو زهر الروض الأنور أو كالنجوم الزاهرة أو البرود المرموقة أو كأنفاس النسيم السحرية و من هذا و أمثاله لأنهم يريدون المبالغة فيما وصفوه).

ثم قال (وجه تشبيه الثناء بالمسك و بأنفاس الرياض في السحر هو أن الثناء الحسن يقال فيه: فلان طيب الثناء و استعاروا له رائحة المسك و أنفاس الرياض فقالوا: ثناء كأنه المسك ووجه تشبيه الثناء بالكواكب و بالصباح و بغير ذلك هو أن الثناء الحسن يقال فيه أنه لا يخفي و صف فلان علي أحد و لا أوضح للعين من النجوم و من الصباح ووجه تشبيه الثناء بالبرود المرقومة هو أن الثناء الحسن يقال فيه فلان يحوك أوصاف فلان و ينسجها علي منوال غريب و يرقم برودها و ما يريدون بذلك إلا المبالغة لأنه صار بحيث يدرك بعد حاسة السمع بحاستي البصر و الشم و ما أحسن قول محمد بن غالب الرصاف (أجري حديثك ثم أعلم أنه قول يقال و عرفة مشموم , أما إذا قالوا ثناؤه يهز الأعطاف و يطرب الأسماع فهو علي أصله فيما يدرك بحاسة السمع, نعم يستعيرون له سجع الحمام و تغريده و أصوات المثاني و المثالث و نغمات الألحان فقول ابن زيدون رحمه الله تعالي ــ و هل لبس الصباح إلا بردا طرزته بفضائلك من هذا الباب الذي قدمته و كذلك ما بعده إلي قوله ... و بث المسك إلا حديثا أذعته عن محامدك) [1]

و أما قول ابن زيدون (ما يوم حليمة بسر) فهذا مثل من أمثال العرب و أصله أن حليمة بنت بن أبي شمر كان أبوها قد وجه جيشا إلي المنذر بن ماء السماء فأخرجت لهم طيبا في مركن فطيبتهم, قال المبرد: هو أشهر أيام العرب يقال : ارتفع في هذا اليوم من العجاج ما غطي عين الشمس حتى ظهرت الكواكب و هو مثل يضرب في كل أمر متعاظم [2]

أقول استشهاد ابن زيدون بهذا المثل كالدليل عل ما ادعاه من طيب خصال ممدوحه واشتهار محاسنه بين الناس و أنه ما ادعا له شيئا جديدا ، وما أعلن عن شئ مخفي بل إنه ما زاد علي أن ذكر بعض محاسنه التي يعرفها كل من سمع عنه و يستشعرها كل من رآه و إذا كان من المعروف أن المثل لا بد فيه من الذيوع و الانتشار حتى يستحضر أصله الأول الذي قيل فيه أو قل الذي ورد فيه فتشبه به حالة أخري مشتركة مع حالته الأولي

---

(1) يُنظر : تمام المتون ص288, 289 بتصرف

(2) المرجع السابق ص294 , 295 مع بعض التصرف .

التي ورد فيها في كل الصفات أو في بعضها فإن صاحبنا قد استحضر صورة هذا المثل الذي استشهد به علي ما ادعاه لممدوحه فشبه بها حالة ممدوحه و أن محاسنه و محامده و مآثره قد بلغت الغاية في الظهور و الاشتهار بين الناس فمن ثم ساغ له أن يضرب لها هذا المثل الذي تستخدمه العرب في كل أمر شائع منتشر , و إذا تمهد هذا فالاستعارة التمثيلية غير خفية و تقريرها أن يقال شبه ابن زيدون حال ممدوحه في كون خصاله و محامده قد بلغت الغاية في الشيوع و الانتشار فأصبحت لا تخفي علي أحد ممن رآه أو عرفه أو سمع به بحال ما حدث في الموقعة التي قتل فيها المنذر بن ماء السماء و هزم فيها هو و جنوده , و كانت حليمة بنت الحارث طرفاً هاماً في هذه المعركة حتى اشتهر اليوم و ما حدث فيه باسمها فضرب به المثل, و الجامع كما لا يخفي الشيوع و الانتشار , و يبالغ ابن زيدون في هذا المعني بقوله [و إن كنت لم أكسك سلیباًو لا حليتك عطلاً و لا وسمتك غفلاً بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت و مكان القول ذا سعة فقلت] أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه بإذاعة المحاسن و نشر المدائح و أنه اخترع له هذه السجايا و الخلال حيث يقول له إني لم أمدحك إلا بما هو فيك من خصائص الخصال و جميل الخلال و إنما أنا صغتها في القالب الذي يلفت الأنظار و يجلو صدأ الأفكار , قال الصفدي [قد استعار الكسوة و التحلية للنساء و العطلة و الإغفال له و هي استعارة جيدة] و هذه الاستعارة التي ذكرها الصفدي في قول ابن زيدون لم أكسك و لم أحلك و لا وسمتك غفلا, فأما قوله لم أكسك ففيه استعارة تصريحية تبعية في الفعل أكسك بعد استعارة مصدره و هو الكساء أو الكسوة ثم تسري الاستعارة من المصدر إلي الفعل فيقال قد استعار الكسوة أو الكساء لمحاسن الممدوح و محامده ثم اشتق من الكساء أكسو علي طريق الاستعارة التبعية و الجامع الشمول و الإحاطة , و كذلك استعارة التحلية لتلك الخصال و المحامد و اشتق من التحلية أحلّ بجامع التزيين و التحسين و رشح هاتين الاستعارتين بقوله سليباً لأن معناه عري من الثياب , وعطل معناه خلو جيد المرأة من الحلي و هو من ملائمات المستعار منه و لا يخفي ما في الاستعارة المرشحة من الادعاء و البناء علي تناسي التشبيه لكمال المبالغة.

و أما قول ابن زيدون بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت و مكان القول و ذا سعة فقلت.

قال الصفدي (يعني أنه لا فضل لي مدائحك لأنني فيها كمن وجد أجراً وجصاً فبنى بيتا من ذلك و شيد مكانا و لكن لي في ذلك بعض فضل) ثم استأنس الصفدي لهذا المعني بقول الخفاجي :

وَلِي فِيْــكَ مِــنْ غُــرِّ القَــوَافِي فَضَــائِلٌ تقبــلُ أفــواهُ الــرواةِ لهَــا رشــفَا

يَــنِمُّ بِهَــا طِيْــبُ النَّسِــيْمِ إِذَا هَفَــا وينشــرُها نــورُ الريــاضِ إِذَا رفّــا

وَمَــا أَدعِــي دُرَّ الكَــلامِ لأَنَــهُ صِــفَاتُكَ إِلاَّ أَنَّــنِي أحْسِــنُ الرَّصْــفَا

وقول الصفدي (يعني أنه لا فضل لي في مدائحك لأنني فيها كمن وجد أجراً وحصاً فبني بيتاً) يشير إلي أن هذا الكلام إنما جاء علي طريق الاستعارة و هي تصريحية تمثيلية فقد شبه ابن زيدون حاله مع ممدوحه و أنه لم يدع له فضلا مخترعا و لم يضف إلي محامده شيئا ليس فيه و إنما له فقط ذكر هذه الفضائل و المآثر و روايتها لتزداد شيوعا بين الناس بحال البنّاء الذي لم يخترع المادة يبني بها و يشيد بها بنائه بل له فقط ترتيبها و تنظيمها و تجميعها علي صورة معينة لتظهر للرائي علي شكل بيت أو نحوه و الجامع بين المستعار منه و المستعار له الهيئة الحاصلة من الشئ يكون موجودا ثم يرتب و ينظم علي طريقة مخصوصة و أما قول ابن زيدون مخاطبا ابن جهور (لعمرك إن صريح الرأي أن أتحول إذا بلغتني الشمس و نبا بي المنزل و أصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال فلا أستوطن العجز و لا أطمئن إلي الغرور من الأمثال المضروبة خامري أمّ عامري) يقسم بحياة سيده أنه ما جهل أن سديد الرأي وجوب التحول عن مقام الإهانة متي شعر بلحاقها به كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة و ذريعة الخذلان و مقطع أعناق الرجال و أنه كان عليه أن يرحل و لا يستسهل العجز و لا يميل إلي الغرور و لكن خابت آماله و انعكست أحواله فكان الغرور نصيبه و الأمل قائد فاغتر كما اغتر الضبع بقول القائد خامري أمّ عامري . مما تقدم يتضح لماذا ضرب ابن زيدون هذا المثل نحو قولهم خامري أمّ عامري و ذلك مثل يضرب لمن يغتر في الدنيا أو يغتر بشئ فيطمئن إليه مع كونه فيه هلكته و ضرره و أمّ عامري كناية عن الضبع يضرب به المثل في الحمق (و هي من أشهر كناها) قال الصفدي (و في المثل أيضا لا أكون كالضبع تسمع اللدم فتخرج حتى تصاد) ثم قال (و زعموا أنها أحمق الدواب إذا أرادوا صيدها رموا في جحرها بحجر فتحسبه شيئا تصيده فتخرج لتأخذه فتصاد). فيضرب هذا الغافل المغرور الذي يغتر بما يظهر له من ظواهر الأمور فيطمئن إليها مع جهله بعواقبها و ما تؤدي إليه نهايتها ، بهذا التوضيح تلوح بهذا المثل

الاستعارة التمثيلية على وجهها ؛ إذ قد استعير هذه للحالة التي ضرب فيها المثل أول مرة لحالة ابن زيدون عندما اغتر بجوار الأمير ابن جهور و بما ينال عنده من المودة و الصفاء و الأنس فلما تبدل حاله معه إلي ضد ذلك كان ينبغي عليه أن يتحول عن ذلك الجوار لما يناله منه من الغربة و الوحشة و لكنه اغتر بما كان بينه و بين الأمير قبل ذلك فلم يرتحل أو يتحول فكان في غروره هذا كحال الضبع يرمي في جحرها بحجر فتظنه شيئا تصطاده فتغتر به فتخرج إليه لتأخذه فيكون في ذلك حتفها ،و الجامع بين طرفي هذه الاستعارة هو الهيئة الحاصلة من الشئ يغتر بظاهره و في مخبره الهلاك الشديد أو بعبارة أخري حال الشئ يسرك منظره و يسوءك مخبره و لعمري لقد أجاد ابن زيدون في اختيار الأمثال التي ضربها لدقة وصف حالتيه مع الأمير و فيما اختاره لمدح ابن جهور أو ما اختار ليعبر عن وصف ما ناله في صحبته أو جفاءه و لا يكون هذا إلا من خبير بأساليب الكلام مطلع علي آداب العرب ضارب بأطناب في جودة الفكر و حسن الاختيار و ذكاء العقل ،ثم يقول ابن زيدون (غير أن الوطن محبوب و المنشأ مألوف و اللبيب يحن إلي وطنه حنين النجيب إلي عطنه و الكريم لا يجفو أرضا بها قوابله و لا ينسي بلدا فيها مراضعه قال الاول:

أحب بلاد الله ما بين منعج إلي و سلمي أن يصوب سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمي و أول أرض مس جلدي ترابها

و هذا إلي مغالاتي بعقد جوارك و منافستي بلحظة من قربك و اعتقادي أن الطمع في غير طبع , و الغني من سواك غناء و البدل منك أعور , و العوض لفاء , و كل الصيد في جوف الفرا ،

(و إذا نظرت إلي أميري زادني ضنا به نظري إلي الأمراء

و في كل شجرة نار و استمجد المرخ و العقار

بيّن ابن زيدون في هذه القطعة بعد أن ذكر لابن جهور أن سديد الرأي أن ينتقل عن المكان الذي أصابته فيه الإهانة و ناله فيه من الآلآم ما ناله فأراد أن يبين السبب الذي حمله علي المكث في وطنه و عدم الإنتقال عنه بالرغم مما يناله فيه فقال إن الوطن محبوب و المنشأ مألوف كما قال القائل:

ما من غريب و إن أبدي تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطن

ولا غرو فهي أول أرض وجد بها و أول تربة تضمخ بها جسده و أول بلد نما فيها فكره و أول جهة قضي بها الشباب مآربه مع إخوان و أحباب و خلان و أتراب فإذا تذكر هذه الجهات تخيل له وجد الحنين ووحشة الحال ورأي أغصان شبابه تميد علي تلك الأوطان و تتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن إليها حنين الغريب إلي وطنه و أنه ليس من كرم الأصل و شرف المحتد أن يهجر الإنسان قوابله و مراضعه لما لهن عليه من الخير العميم و الفضل العظيم في أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن حتي يجنين ثمرات أتعابهن و صبرهن.

ثم بعد أن بين محبة الوطن و ألفة المنشأ أراد أن يبين أنه ليس هذا هو السبب الذي حمله علي البقاء في وطنه فقط بل هناك سبب آخر ربما كان ابن زيدون أراد أن يعلم به الأمير مبالغة في مدحه و استدراراً لعطفه و تحريكاً لكوامن نفسه ألا و هو شدة محبته لجواره و حظوته بقربه و كأنه أراد أن يقول له أنت أكرم من حفظ للجوار حرمته و اعتقاد الطمأنينة إلي غيرك غرور و الثقة بخلافك خذلان و عدم رضائي بسواك بدلاً و لا غيرك عوضاً و كيف أنظر إلي غيرك من الأمراء و قد جمعت فيك كل صفاتهم الحميدة و أخلاقهم الكريمة و إن اشتركوا معك في اللقب فإنك قد فقتهم في كمال الفضل و الأدب و كما قال القائل:

في كـــــــــل شــــــــجرة نـــــــــار واســــــتمجد المــــــرخ و العفـــــــار

هذا و قد حوت هذه القطعة من الأمثال ما يدل علي براعة ابن زيدون في مناسبة المقام لضرب هذه الأمثال لتكون خير معبر عن غرضه ووصف حالته مع صاحبه المخاطب بتلك الرسالة فمن تلك الأمثال (كل الصيد في جوف الفرا) و أصل هذا المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين فاصطاد أحدهم أرنباً و الآخر ظبياً و الثالث حماراً وحشياً فاستبشر صاحب الأرنب و صاحب الظبي بما نالا و تطاولا عليه فقال الثالث (كل الصيد في جوف الفرا) أي هذا الذي رزقت و ظفرت به يشتمل علي ما عندكما و ذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من حمار الوحش.

و كأن ابن زيدون أراد أن يضرب هذا المثل مستعيرا له من حالته التي ضُرب فيها أولاً لبقائه بجوار الأمير إذ ربما يظن ظان من حاسديه و منافسيه أن بقاءه بجواره لم ينله شيئا إلا التعب و الغربة و السجن و الإرهاق و الحط

من قدره بقبول الوشاية التي ترتب عليها إقصاء ابن جهور له و إبعاده من منصبه فكأنه أراد أن يقول إن بقاءه بجوار الأمير قد ناله منه الخير كله ، و بهذا التوضيح أصبح غير خفي استعارة الحالة الأولي التي ضرب فيها هذا المثل لحالة ابن زيدون التي سبق أن نبهت عليها و غير خفي بعد ذلك البيان أن يقال إن الجامع في هذه الاستعارة بين هاتين الحالتين هو الهيئة الحاصلة من الشئ يظن فيه غير ما هو عليه في الحقيقة..

و من تلك الأمثال قوله (و البدل منك أعور) (أصل هذا المثل أن يزيد ابن المهلب لما صرف عن خراسان بعتبة ابن مسلم الباهلي و كان شحيحا و شيخا أعور قال الناس هذا بدل أعور فصار مثلا لكل من لا يرتضي به بدلا من الذاهب) [1] فبذلك اتضح أن ابن زيدون قد استعار هذا المثل فضربه لحاله في بقائه بجوار الأمير ابن جهور و عدم انتقاله عنه لأنه لا يرضي بجواره بدل فإن كل بدل عنه ناقص و كيف يستبدل العاقل الكامل بالناقص و الثمين بالغث ،و ضرب هذا المثل فيه مبالغة في مدح ابن جهور و أشار إلي الحرص علي بقاء ابن زيدون بجواره و عدم الزهد فيه و إن نال فيه ما ناله فإن ذلك هين بالقياس إلي ما حظي به ابن زيدون من قرب ابن جهور و مصاحبته له, و لذلك تراه يضرب أيضا مثلا آخر نستعيره لحالته مع ابن جهور حرصا علي مصاحبته له و بقاءه بجواره فيقول (و العوض منك لفاء) قال الصفدي و اللفاء : الشئ الخسيس, يقال فلان رضي من الوفاء باللفاء, أي عن حقه الوافر بالقليل الحقير) [2] ثم قال و الأصل في ذلك قولهم في المثل أعطاني اللفاء , يضرب لمن يبخسك حقك و يظلمك فيه [3] و كأن ابن زيدون قد استعار هذا المثل ليبين أن الانتقال عن جوار ابن جهور بخس لحقه و حط لمنصبه و الجامع بين الحالتين الرضا بالقليل بدلا من الكثير و بالناقص بدلا من الكامل و هذا لا يقبله عاقل، و يدعي ابن زيدون أنه نال بقرب ابن جهور الخير الكثير و إن بمصاحبته له قد فاق أقرانه و رقي إلي منزلة حاول منافسوه الوصول إليها فلم يفلحوا فحقدوا عليه ووشوا به عند صاحبه و ما ذلك إلا لعلو منزلة ابن جهور على الأمراء و لذلك ترى يضرب ابن زيدون

---

(1) يُنظر : تمام المتون الصفدي ، ص 339

(2) السابق ، ص 339

(3) السابق ، ص 340

لهذا المعني مثلا آخر يقول و في كل شجرة نار , و استمجد المرخ و العفار [1] و معني قوله (استمجد المرخ و العفار) أن كل شجرة أخذ عودان و حكا خرج منهما نار و لكن تفرد بالمجد في هذا المثل المرخ و العفار, و هذا المثل يضرب في تفضيل بعض المشتركين في صفة علي بعض معناه إما أن يكون قصد ابن زيدون به الإشارة إلي أن الأمراء غير ابن جهور و إن كان فيهم بعض الصفات التي هي فيه فإنه قد فاق فيها أقرانه و فضل علي شركاءه و إما أن يكون قصده بهذا المثل أن قرناء ابن زيدون و شركاءه في صحبة ابن جهور و في منزلته و إن اشتركوا في ذلك إلا أنهم فاقهم في تلك الصفة بزيادة قربه لابن جهور و حظوته لديه و طول مصاحبته إياه و علي ذلك فالاستعارة التمثيلية علي كلا الاحتمالين غير خفية و الجهة الجامعة بين طرفيها هي الهيئة الحاصلة من الشئ يفوق جنسه و يفضل عليه في بعض الصفات التي اشترك في أصلها و هذا كلام يدهش اللب و يسحر القلب لما يتميز به من دقة السبك و حسن الإختيار و مناسبة المقام و الانسياب معه انسيابا سهلا و رقيقا لا تكاد تري معه نبوة و لا تكلفاً ،ثم يقول ابن زيدون (أعيذك و نفسي أن أشيم خلباً أو استمطر جهاماً و أكرم غير مكرم و أشكو شكوي الجريح إلي العقبان و الرخم فما أبسست لك إلا لتدر و لا حركت لك الحوار إلا لتحن و ما نبهتك إلا لأنام و ما سريت لك إلا لأحمد السرى إليك)، قال صاحب كتاب إظهار المكنون مبيناً مقصود ابن زيدون من هذه القطعة من الرسالة(بعد أن مدحه و استعطفه بما يلين القلوب القاسية و يفجر ينابيع العطف من صلب القلوب شرع يطلب منه بنسق عجيب و نمط غريب أن يجعل لأعماله نتيجة يجني ثمرتها و أن يكون سيده غارس دوحتها و أن لا يجعله كالمستميح الماء من الصخر و المستجير عند كربته بعمرو و المستمطر الجهام و الناظر إلي البرق الخلب و يذكره بسبب إنشاء هذه الرسالة و أنه ما تفنن في أساليبها و أجهد نفسه في إختراع معانيها و انتخاب أمثالها الغريبة المثال و أبياتها الأبيات في الانعقاد علي الرجال و غير ذلك من الحكم التي لو سقيت بها أشجار القلوب القاسية لأثمرت العفو أو رويت بها أرض الهجر لأنبتت الوصل و ما ذاك إلا ليرسل عليه سحاب عطفه مدراراً و أن يصل رحم الجوار بعد القطيعة و يقر عيناً أضرها سهاد الجفوة و أن يحمد إليه سراه و يحسن عقباه) ،أقول بهذا الأسلوب العجيب و الأدب الغريب و النمط الجيد صاغ صاحب كتاب إظهار المكنون سبائك الذهب في أسلوب ابن زيدون مبينا المقصود لهذه القطعة التي اشتملت علي بعض الاستعارات العجيبة التي أكثرها قد استقاه ابن زيدون من إنشاء

(1) السابق ، ص 341

الأدباء و شعر الشعراء و لكنك تراه ينساب في كلامه انسياباً عجيباً سهلاً رقيقاً لا يكاد القارئ يحس معه فرقاً بين ما اقتبسه ابن زيدون من غيره و بين أسلوبه إلا بعد كثرة الإطلاع علي كلام الأدباء و شعر الشعراء و لكنه أيضا مع ذلك يتصرف في الأمثال و في الأبيات في كثير من الأحيان فيحذف منها و يذكر و يقدم و يؤخر و ذلك دليل علي براعته و حسن توظيف الكلام مع غرضه المنشود و غايته المقصودة، و أراني قد أطلت في هذا قبل بيان الاستعارات في هذه القطعة و لعل انبهاري بأسلوب ابن زيدون هو الذي دعاني إلي ذلك فأما قوله (أعيذك و نفسي أن أشيم خلباً و استمطر جهاماً)فهو يستعيذ بالله و يعيذه ممدوحه بأن يكون حال ابن زيدون بعد أن أزجى له هذا المدح العجيب يستعطفه و يطلب منه إنقاذه من محنته, يستعيذ ابن زيدون من أن تشبه حاله هذه مع الأمير في إبطائه عن إنقاذه و عدم عطفه عليه و استجابته لرجائه بحال من ينظر إلي برق خادع يطمع الناظر إليه في أن يجد منه غيثاً يروي ظمأه و يطفئ غلته فإذا به يراه خلباً خادعاً لا نفع فيه كما قال القائل:

كمـــا أبرقـــت قومـــا عطاشـــا غمامـــة فلمـــــا رأوهـــــا أخشـــــعت و تجلـــــت

و علي ذلك فاحتمال الاستعارة التمثيلية في قوله أن أشيم خلبا واضح و تكون الجهة الجامعة بين الطرفين الهيئة الحاصلة من الشئ يظن فيه النفع و لكنه يخيب ذلك الظن بعدم تحقيق الرجاء، كما يمكن احتمال الاستعارة التصريحية المفردة في قول ابن زيدون هذا و يكون تقريرها أن يقال يستعيذ ابن زيدون من تشبيه رجاءه في الأمير بأن ينقذه من عدم استجابته له بالرجاء من البرق الخادع الخلب مطراً ينتفع به ،والجامع بين الطرفين ما يكون من الطمع في الشئ الذي يعقبه يأس و أري أن الاستعارة التمثيلية فيه أولي لتتناسق أجزاء الصورة مع المعني المقصود و كذلك يقال في قوله و أن استمطر جهاما و قوله و أكرم في غير مكرم يقال فيه مثل ما قيل في سابقه من احتمال الاستعارة التمثيلية و التصريحية المفردة و تغير ألفاظ كل بحسب معاني كلماته غير خفي و الجامع بين طرفي هذه الاستعارات كلها لا يختلف كما هو ظاهر..

و أما قول ابن زيدون (فما أبسست لك إلا لتدر وما حركت لك الحوار إلا لتحن وما نبهتك إلا لأنام وما سريت إليك غلا إلا لأحمد السرى إليك).

لا يزال ابن زيدون يتنقل في ضرب الأمثال مختاراً منها ما يتناسب مع غرض الاستعطاف و المدح بالشكوى التي تدل علي كثرة معاناة ابن زيدون مما لحق من هذه المحنة التي طالت عليه حتى دعته إلي صياغة هذا الأسلوب الذي يحرك القلوب و يبعث كوامن النفوس ، فهو يشبه حاله بحال حالب الناقة و هو يحاول أن يثير الحنين بأفعال اعتادت عليها الناقة عند حلبها و ألفاظ ألفتها تحثها علي إدرار اللبن في ضرعها فيسهل علي الحالب استخراجه لأجل شربه و الانتفاع به، استعار ابن زيدون هذا الحال لحاله مع الأمير في إزجاء المدح له و تنوع أسلوب مخاطبته له بالاستعطاف تارة و الاعتذار إليه أخرى و الشكوى من تبدل حاله بعد مفارقته له و تذكير بما كان بينه و بينه من سابق الصحبة و صادق الود و الإخلاص في الخدمة لعل ذلك يحرك الأمير يشمله بالعطف عليه و الصفح عنه ،و لا يخفي بعد هذا أن الجهة الجامعة بين هاتين الحالتين أو قل بين طرفي هذه الاستعارة هو الهيئة الحاصلة من حال الشئ يتلطف معه بألوان من اللطف حتى يستخرج مراده منه و كذا يقال في قوله (و ما حركت لك الحوار إلا لتحن).

و ذلك أن حالب الناقة يحاول أن يثير حنينها بكل ما اعتادت عليه من قول أو فعل فهو يقرب إليها و لدها الرضيع فإذا رأته أمامها حنت و ضرت عليه اللبن فيسهل علي الحالب استخراجه من ثديها ،يستعير ابن زيدون هذه الحالة أيضا لحاله مع ابن جهور و هو يحاول تذكيره بما سبق بينه و بينه استدراكاً لعطفه و الجامع هو عين ما ذكرته في بيان الاستعارة الأولي و احتمال الاستعارة التصريحية المفردة بأن يستعار الإبساس لقول ابن زيدون في ابن جهور و الإضرار لعطف عليه و تحريك الحوار لتلوين القول في هذه الرسالة بين مدح و ثناء و اعتزاز و شكوى و تذكير بصادق الود و غير ذلك مما احتوت عليه الرسالة، أقول إن احتمال الاستعارات التصريحية التبعية المفردة أراه مما يفكك أجزاء الصورة و يفرق نظم الكلام و هو و إن كان توظيفا لكل كلمة في موضعها توظيفا صحيحا مقبولا إلا أني أري أن كمال الصورة و اتساق النظم يقتضي بل يرجح الاستعارة التمثيلية كما لا يخفي عند التأمل لا سيما و أنت خبير بأن هذه الكلمات التي ذكرها ابن زيدون قد جرت عند العرب مجري الأمثال الشائعة فهم يقولون (الإيناس قبل الإبساس) و في المثل أيضا (حرك لها حوارها تحن) يقصد به أن يقال ذكره بعض أشجانه يهيج لها، ثم يقول ابن زيدون : و لما توالت عذر هذا النثر و اتسقت دره فهز عطف غلوائه و جر ذيل خيلائه عارضه النظم مباهيا بل كايده مداهيا حين أشفق أن يستعطف استعطافه و تميل بنفسك ألطافه فاستحسن العائدة منه و اعتد بالفائدة له فما زال يستكد الذهن العليل و

الخاطر الكليل حتى زف إليك عروسا مجلوة في أثوابها منصوصة بحليها و ملايها. لما انتهي ابن زيدون من غرضه و أوشك علي إتمام رسالته أراد أن يحسن التعليل في تقديمه لنظم يشتمل علي مدح ابن جهور في بلاغة رائعة و فصاحة بارعة فكأنه يقول إن النظم حينما رأي أخاه النثر قد لين قلبك و أخذ بجامع لبك لما فيه من لطف إشارته و حسن عبارته غار منه و أراد أن يكون هو غريقها المرجب و الراكب في ميدانها كل أشهب و استحسن أن ينفرد بهذه المزية وأن يكون هو المبلغ لناظمه الأمنية ،و في ذلك من حسن التلطف ما فيه و في هذه القطعة عدة استعارات الأولي استعارة تصريحية أصلية و هي في قوله (ولما توالت عذر) و رواية الديوان (ولما توالت عذر) ففي النسخة التي شرح عليها الصفدي (ولما توالت غرر) بالغين المعجمة و راءين و في الديوان (ولما توالت عذر) بالعين المهملة و الذال المعجمة ،و العذر جمع عذرة وهي الدرة التي لم تثقب ،و أما الغرر فجمع غرة و هي أول ما يبدو من الشئ و أكرمه ،و التصحيف بين هاتين الروايتين وارد, و رواية الغرر بالغين المعجمة و الراءين أولي لعدم التكرار بين قوله (ولما توالت) إلي آخره و قوله (واتسقت دره) و علي رواية الديوان يكون ابن زيدون قد استعار العذر و هي الدرر التي لم تثقب لكلمات هذه الرسالة بجامع إن كلاً منهما لم يمس فكأن ابن زيدون يشيد بنثره هذا مادحاً له مشيراً إلي أنه شئ ثمين له قدره و شرفه فينبغي أن يقدره ابن جهور و ينزل منه منزلاً حسناً و علي الرواية الأخرى يكون ابن زيدون قد استعار الغرر و هي جمع غرة و هي أول ما يبدو من الأشياء و أكرمها و الجامع قريب من الأول و كأنه يصف كلماته بأنها كلمات لها من الكرم و الشرف و علو المنزلة ما لها كما أنها لوضوحها و تميزها عن سائر الكلام لها ما للغرة التي هي أول الشئ و أكرمه.

وقوله (و اتسقت دره) هي ثانية هذه الاستعارات في هذه القطعة و هي تصريحية أصلية لكونه قد استعار الدرر لكلمات رسالته بجامع الحسن في كل ،و مدح ابن زيدون لنثره هذا فيه إيماء للحث علي الإقبال عليه و الرغبة فيه و تحقيق الغرض المرجو منه من تمكنه من قلب ابن جهور لكي يتحقق له ما قصده بإرساله إليه و هو تفريج كربته و إزالة محنته و إعادته إلي سابق ما كان بينه و بينه من ود و صفاء لأن ترك ابن زيدون نهباً لهذه المحنة فقد لأديب ألمعي و عالم لوزعي و خسارة علي الأدب لا تعوض.

و ثالث هذه الاستعارات (فهز عطف غلوائه و جر ذيل خيلائه) و هي استعارة بالكناية حيث استعار الإنسان المتكبر الذي يتيه علي أقرانه و يرتفع علي أصحابه لما له من علو في المنزلة و جمال في الصورة لذلك

النثر الذي كتبه ابن زيدون لابن جهور و هذا العطف و جر الذيل و إسنادهما لذلك النثر (المستعار له) و هما من خواص المستعار منه إنما ذلك علي طريق الاستعارة التخييلية التي هي قرينة الاستعارة بالكناية المذكورة آنفاً.

و أما قوله (عارضه النظم مباهياً بل كايده مداهياً) فقد قال الصفدي في معناه(يريد بهذا الكلام أن النثر إذا تقدم فلا بأس للمتكلم أن يلحقه بشئ من النظم لأن النفوس ترتاح إلي ذلك ولأن البلاغة دائرة بين هذين النوعين و هما النظم و النثر) [1]، أقول و هذا تعليل حسن أراد به ابن زيدون أن يقدم لقصيدة يرسلها إلي ابن جهور بين يدي هذا النثر الذي كتبه إليه سالكاً في ذلك نوعي طريق البلاغة العربية نثراً و شعراً و ها هنا قد استعار للنظم و النثر شخصين يعارض أحدهما الآخر و يمكر أحدهما بالآخر مدعياً كل منهما لنفسه الفضل علي الآخر و السبق في تحقيق الطلبة و نيل الغرض و إرضاء ابن جهور و هي استعارة بالكناية كما هو واضح و من ثم فإثباته للنظم و النثر المعارضة و المكايدة إنما هو علي طريق الاستعارة التخييلية التي هي قرينتها و هي تومئ إلي محاولة إرضاء ابن جهور و تحريك قلبه و إظهار براعة ابن زيدون في استخدامه النظم و النثر لتحقيق غرضه في بلاغة رائعة و فصاحة رائقة فإن من الأدباء ما يحسن الشعر و تري نثره دون ذلك و منهم من يحسن النثر و تراه في الشعر ليس هنالك و ابن زيدون قد جمع بين المنزلتين و حاز البعد في المرتبتين و إن كانت هناك بعض المآخذ التي أخذها بعض النقاد عليه فإن تلك المآخذ قد أخفتها مآثره و غطتها محاسنه و الاستعارة بالكناية غير خفية في قوله (حين أشفق أن يستعطفك استعطافه و تميل بنفسك ألطافه فاستحسن العائدة منه و اعتد بالفائدة له)، ثم يستكمل ابن زيدون وصف صورة المكايدة بين النظم و النثر علي طريق الاستعارة بالكناية أيضا فيقول (ما زال يستكد الذهن العليل و الخاطر الكليل حتى زف إليك عروساً مجلوة في أثوابها منصوصة بحليها و ملايها) و لا يخفي عليك استعارته العروس لقصيدة النظم التي أرسل بها إلي ابن جهور مع هذا النثر استعارة تصريحية أصلية بجامع الحسن و الجمال في كلٍ، و قد سلك ابن زيدون من أنواع هذه الاستعارة أقواها و أبلغها فقد رشح استعارته المكنية بقوله (فاستحسن العائدة منه و اعتد بالفائدة له) و بقوله (يستعطفك) و رشح الاستعارة التصريحية الأصلية التي أشرت إليها آنفاً بقوله (مجلوة في أثوابها منصوصة بحليها و ملايها) و هكذا تري ابن زيدون حين يبالغ في إدعاء شئ لشئ يحاول أن يقربك إلي الحقيقة التي تنسى

(1) ينظر : تمام المتون ، ص 386

معها التشبيه ليريك أن هذه الاشياء المعنوية قد تجسدت في أشياء حسية فخرجت من أصلها و تحولت عن حقيقتها ، وإلى هذا الحد نمسك بعنان القول عن الكلام في الاستعارة من رسالة ابن زيدون و أظن أن القول قد أحاط بكل ما فيها من استعارات أو جله إلا ما غفلت أو سهوت عنه أو لم يتضح له عندي معني في بيان الاستعارة فيه و الغفلة و السهو من طبع البشر هذا و استعارات ابن زيدون عند التأمل فيها نراها واضحة سهلة مناسبة مع كلامه في الرسالة انسياباً سهلاً بعيداً عن التكلف و الغموض و هي مع كونها كذلك دقيقة تحتاج في كثير من الأحيان من المطلع علي رسالته إلي إعمال فكر و تدقيق نظر لكي يتضح المقصود منها كما تحتاج إلي سعة إطلاع علي آداب العرب و أمثالها لكونه قد ضمن كلامه الذي اجتلب فيه كثيرا من كلام غيره ولا سيما من أمثال العرب .

الخاتمة

بعد هذا التطواف بين جنان الرسالة الجدية ، وظلالها الوارفة ، نستطيع أن نستخلص ما يلي :

1) يتضح من خلال الرسالة سعة أفق ابن زيدون ، وصلته القوية بالتراث العربي ، فنراه يستشهد بقطوف من أدب العصر الجاهلي والإسلامي ، ويقدس القرآن والحديث النبوي ، ويقتبس منها اقتباسا مناسبا .

2) تنوعت المعاني في الرسالة ، وتعددت أساليبها بين غيبة وخطاب ، وضرب أمثال واستشهاد بمأثور ، وتنوعت بين الضراعة والاعتذار واليأس والرجاء ، والتقريب والتلميح بالابتعاد ، كل ذلك في عبارات جزلة منتقاة ، ومعان نابضة بالحياة [1].

3) حسن انتقال ابن زيدون بين معانيه وخواطره انتقالا طبيعيا لا فجوات فيه ، بل هو سلسلة مترابطة الحلقات في تناسق واطراد [2].

4) اتسمت الرسالة بجمال العبارة ، وكثرة الصور والأخيلة ، ودقة انتقاء الألفاظ حتى أشبه شعرُه نثره وموسيقاه.

5) الرسالة تنبض بالعاطفة القوية والروح المشبوبة والنفس المكلومة مما يجعلها نفثة مصدور حزين ، تحرك كلماته المشاعر في القلوب ، وتثير الأشجان في النفوس .

6) الرسالة غنية بالأعلام والوقائع والأشعار مما يدل على وفرة ثقافة ابن زيدون وكثرة محفوظه ، وسعة اطلاعه ، وبراعة استشهاده.

7) حسن توظيف هذه الثقافة ، وبراعة التأنق في استخدامها ، وجودة سبكها مع مراد الرسالة ؛ بحيث ظهرت في قالب واحد ليس فيه شذوذ .

8) تعدد النعوت للشيء الواحد ، واستخدام حروف الجر متتابعة ، واستقصاء أجزاء المعاني ، وتأديته بجمل قصار تبدو في الظاهر ترادفا وتكرارا ، ولكنها في الواقع استيفاء لكل ظلال المعنى .

9) يستطرد ابن زيدون في معانيه ، ويطنب في كلامه لكن ذلك يأتي في خدمة مراده وإيضاح هدفه

10) يمزج ابن زيدون بين الأساليب العاطفية التي تثير الوجدان ، وتلهب الأحاسيس ، وبين الأساليب العقلية المدعومة بالحجج والبراهين المنطقية التي تقنع العقل ، وتثيره نحو التأمل والمراجعة

---

(1) ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم ، ص 90 ، ط/ مكتبة نهضة مصر

(2) السابق ، ص 90

11) سلامة الرسالة من التكلف البغيض في المعاني والأساليب ، ومجيء المحسنات البديعية فيها مطبوعة غير متكلفة ولا مصطنعة.

مآخذ على الرسالة :

كأي نتاج بشري فلابد أن تكون هناك مآخذ وهنات لا تقلل من قيمة العمل ولا تقدح في صاحبه ، وإنما ذلك على حدّ قول القائل:

مــن ذا الــذي تُرضَــى سَــجَاياه كلُهــا كَفَــى المــرء نُــبْلاً أن تُعَــدّ مَعَايبُــهْ

ونستطيع أن نجمل ما ذكره العلماء من مآخذ على هذه الرسالة فيما يلي :

1) كثرة حشد الأسماء والأحداث مما قد يشغل القارئ عن الهدف الأساسي عن الرسالة بحثا عن هذه الأسماء ، ومعرفة لحقائق تلك الأحداث .
2) المبالغة في الاقتباس ، والتضمين ، وكثرة المترادفات .
3) الرسالة فيها لون من الإدلال على الأمير بما يشبه المنّ عليه ، وهو أسلوب غير موفق في مخاطبة الملوك والحكام .
4) كما يوجد في الرسالة تهديد باللجوء إلى خصوم الأمير من ملوك الطوائف المجاورين.
5) في الرسالة ضربٌ خفيٌّ من التأنيب ، وإن كان يصور ذلك بأسلوب ليّن وعبارة رقيقة .
6) ويؤخذ أيضا على الرسالة ، أن ابن زيدون كان عليه أن يضرب الأمثال بأولي الحلم والعفو عند المقدرة من عظماء الرجال ، بدلا من أن يضربه بكبار المذنبين أو المجرمين.
7) وقوع بعض الأخطاء التاريخية في الرسالة ، وذلك في قوله : (وتأوّلت في بيعة العقبة ، ولم يتأول فيها أحدٌ كما هو معلوم) وكذا قوله : (وتخلّفت عن الصلاة في بني قريظة ، ولم يتخلف أحد من الصحابة عن الصلاة هناك) وكذلك قوله : (وكتبت إلى عمر بن سعد أن جعجع بالحسين) والمكتوب إليه هو الحر بن يزيد التميمي ، لا عمر بن سعد .

وقد تأوّل بعض العلماء هذه الأخطاء التي وقع فيها ابن زيدون ، والتمس له منها مخرجا ؛ فمنهم من أرجع هذا الخطأ إلى الحالة النفسية التي كان عليها ابن زيدون وقت رسالته إذ كان في السجن [1]، وقد تبدّلت حاله ، وتنكر له زمانه ، وتنمّر له أقرانه ، وقلبت له الدنيا ظهر المجنّ ، ولا شك أن هذا له تأثير بالغ في نفسية أي فرد ؛ لاسيما إن كان من ذوي الجاه والسلطان.

وإنما أردت أن أجعل الكلام على الرسالة في التمهيد والخاتمة كلاماً شاملاً عاماً لتتم الفائدة ويتضح المراد على أن العزم معقود إن شاء الله على أن أتكلم على البلاغة الشاملة في هذه الرسالة إن قدر الله تعالى أن تتهيأ الأحوال وتطابق حال الفقير مقتضى الحال إن شاء الله الكبير المتعال والله تعالى أعلى وأعلم .

المصادر والمراجع

-الأدب الأندلسي التطور والتجديد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، ط/ دار الجيل. بيروت ، الطبعة الأولى 1992م

-أسرار البلاغة ، تح : محمود شاكر ، ط/ المدني بالقاهرة ، الطبعة الأولى

(1)ديوان ابن زيدون ورسائله ، ص 90

-إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون ، لمصطفى عناني ، ط/ المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الثالثة 1927م
-الإيضاح في علوم البلاغة ، تح : د / محمد السّعدي فرهود ، د / محمد عبد المنعم خفاجي ، د / عبد العزيز شرف ، ط / دار الكتاب المصري ـ القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ، الطبعة السادسة 1420 هـ ـ 1999 م
-تجريد البناني علي مختصر السعد
-تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، للصفدي ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/ المكتبة العصرية بيروت 1969م
-حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد ، المسماه بتحفة المريد ، ط/ دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان
-حاشية الدسوقي على مختصر السعد ، ط/ المكتبة الأزهرية للتراث
-حاشية الشريف على المطول ، ط/ المكتبة الأزهرية للتراث
-حاشية الشهاب على البيضاوي ، ط / بيروت
-ديوان ابن زيدون ورسائله ، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم ، ط/ مكتبة نهضة مصر
-ديوان ابن زيدون (رسائله ـ أخباره ـ شعر الملكين) شرح وضبط وتصنيف : كامل كيلاني ، وعبد الرحمن خليفة ، ط / مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى 1351هـ ـ 1932م
-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي ، ط / دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان
-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، تح : د/ إحسان عباس ، ط/ دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 2000م
-شرح عقود الجمان في المعاني والبيان ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، ط / دار الفكر (بيروت ـ لبنان)
-شروح التلخيص ، ط / دار البيان العربي ، دار الهادي (بيروت ـ لبنان) الطبعة الرابعة 1412هـ ـ 1992م
-الطراز ، ليحي بن حمزة العلوي ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان

-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للإمام جار الله الزمخشريّ ، تح : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوّض ، ط / مكتبة العبيكان . الرياض ، الطبعة الأولى 1418 هـ . 1998 م
-لسان العرب ، للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ، ط / دار صادر . بيروت ، الطبعة الأولى 1997
-المطوّل في شرح تلخيص المفتاح ، لسعد الدين مسعود التفتازاني الهِرَوِي ، ط / المكتبة الأزهرية للتراث
-معجم أساس البلاغة ، لأبى القاسم جار الله الزمخشرىّ ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، الطبعة الأولى 1419 هـ . 1998 م
-مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربي ، المطبوع مع شروح التلخيص ، ط / دار الكتب العلمية
-نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، للإمام : فخر الدين الرّازي ، تح : د / بكري شيخ أمين ، الطبعة الأولى 1985 م ، ط / دار العلم للملايين ، بيروت ـ لبنان .

فهرس الموضوعات

المقدمة 1

تمهيد
4
أولا : ترجمة ابن زيدون ، حياته ونشأته ومناصبه ووفاته 4
ثانيا : الرسالة الجدية 6
نص الرسالة
8
الفصل الأول : بلاغة التشبيه وسر جماله في الرسالة الجدية 12
الفصل الثاني : المجاز اللغوي وبلاغته في الرسالة الجدية لابن زيدون 27
المبحث الأول :
المجاز المرسل وبلاغته في الرسالة الجدية 27
المبحث الثاني :
الاستعارة وبلاغتها في الرسالة الجدية 30
الخاتمة 58
المصادر والمراجع
61
فهرس الموضوعات
63